البئر

رواية

نجلاء محمود محرم

طبعة ثانية ٢٠٠٦

الكتـــاب :
البئر - رواية
المؤلــف :
نجلاء محمود محرم

صـــدر عـن :
إيزيس للإبداع والثقافة /ط٢
0020106798962
elgnainy22@yahoo.com
elgnainy22@hotmail.com
elgnainy@hotmail.com

الغــلاف :
طارق العوضى
رقم الإيـداع :
٢٣٨٠ / ٢٠٠٣
ترقيم دولى :
I.S.B.N 977-291-426-3

الفصل الأول

المشهد الأول

كان القمر بدراً.. يسقط ضوؤه على الأطلال فيضئ جانبا منها..

والأحجار المتناثرة تبدو كأنها هرمٌ عتيق مبعثر..

والسور الحجرى المحيط بالبئر يحميها فى حدب وحرص..

وبكرة منصوبة يديرها الناس فيتوالى خروج الدلاء المترعة بماء البئر.. يصبونها فى أكواب ودوارقَ وصفائحَ تحملها أيادٍ كثيرة ممتدة..

صوت الماء يتناغم مع ضوء القمر الحالم..

ومن بعيد.. من " صافورة ".. ترتعش نقاط ضوء صفراء.. ربما لمصابيح كيروسين تهتز ذبالتها.. وحديث خافت تهمس به ألسنة كثيرة قد تجمع أصحابها حول بئر "

صافورة ".. تختلط الكلمات والحروف.. تتداخل الأصوات والمعانى.. تتلاشى الفواصل والحدود.. وتبقى الهمهمات وضوء القمر وصوت المياه..

على الأرض تمددت أجساد..

كل جسد تحوطه جماعة.. وكل جماعة تحمل إناء مليئا بالماء.. يأخذون منه ويمسحون أجساد الراقدين.. يصبونه على الرؤوس.. يشربونه.. يتطلعون لقمر "صافورة" الوضاء.. يتمتمون بأدعية وأوراد.. التعامل مع ماء البئر يتم بخشوع ومهابة.. هو طقس مقدس.. وُضُوءٌ لا تعقبه صلاة.. قد يرتفع صوت:

"والنبى يارب......"

ويضيع باقى الدعاء فى الفضاء المغمور بضوء القمر..

يزداد الزحام حول البئر..

تمتلئ الأرض بالحصر والملاءات المفروشة.. يتزايد تألق القمر ليسكب من النور ما يكفى الجميع.. يتعالى اللغط.. يتوالى قدوم المزيد من الناس.. تختفى الأحجار التى تشبه الهرم العتيق المبعثر تحت الأجساد التى استخدمتها كمتكآت ومقاعد وأسرَّة.. يحجب الزحامُ ضوءَ المصابيح التى كانت

تبدو من بيوت "صافورة".. يحتجب سور البئر.. ولا يظهر سوى الزحام.. وضوء القمر.. تحدوهما همهمات الناس.. وصوت الماء.. وأمل لا ينقطع فى أن تحل بركة ماءِ البئر وَضَوْءِ القمر.. ليرجع الجميع مجبورى الخاطر..

المشهد الثانى

القمر بدرٌ..

والمنزل الحجرى القديم قابع تحت الضوء البارد الصافى..

وبابه المفتوح تخرج منه امرأة سمينة ترتدى ثوبا صيفيا خفيفا وتربط رأسها بمنديل فاتح تحوطه ضفيرتان.. ضوء القمر يتألق على جبهتها العريضة ووجنتيها المكتنزتين.. تميل فى خطوها يمنة ويسرة تحت وطأة استدارة جسدها وتكوره..

بضعة رجال يحملون جسدا نحيلا.. يقفون حين تخرج إليهم مترقبين توجيهاتها.. ينبعث صوتها متلألئا فتتألق ابتسامة كانت شاحبة على وجه القمر:

ــ أرقدوه على الحصير خلف الباب

= يا "ست شكور".. دعينا نرقده فى الغرفة كما أرقدناه فى الشهر الماضى

في الشهر الماضي.. حملته نفس هذه الأيدي إلى نفس هذه الدار.. دار "شكور".. في ليلة مقمرة كهذه الليلة.. بعد أن أُرْقِدَ هناك بجوار البئر.. ومُسِحَ جسده بالماء المبارك.. ولهجت ألسنة بدعوات لاهثة صاحبتها القلوب بالخشوع والرجاء..

في الشهر الماضي.. حُمِلَ إلى بيتها.. وضَوَّى القمر على جبهتها وهي تخرج لاستقباله.. وتَنَحَّتْ عن الباب الذي سده جسمها السمين لتسمح لحامليه بإدخاله.. ومضت خلفهم ترشدهم :

= الحجرة اليمنى.. السرير أسفل النافذة.. ألف سلامة عليه..

وأُرْقِدَ المريض.. وفي ضوء القمر ظهرت ملامحه الباهتة.. شاب صغير.. عشرون عاما أو أقل.. جفناه مواربان.. شفتاه جافتان منفرجتان.. وجنتاه خاسفتان.. جسمه الممصوص ينضح مرضا واستسلاما.. وتأوه خافت ينبعث منه بين حين وآخر..

كان هذا في الشهر الماضي.. في ليلة قمرية صافية كهذه الليلة..

= الحجرة هذا الشهر بها ثلاثة ياحاج.. وعلى عينى نومته خلف الباب..

ــ ينام معهم..

= وهل يصح ؟ هن حريم يا حاج!

ــ أى حريم وأى رجال؟ هم جميعا كومة عظام!

= الشهر القادم ــ إن عشنا ــ سأجعلها من أجل خاطره "رجالى"!

ــ أوَسنأتى الشهر القادم أيضا؟

= لم تأتِ غير شهرين يا حاج..

ــ لو أننا فقط وجدنا نتيجة..

فى ضوء القمر جلس الجميع القرفصاء.. وظلال بيوت حجرية صغيرة كبيت "شكور" تستلقى على الأرض فى وداعة.. ويفرش القمر مستطيلات نور مختلفة المساحات تتمدد إلى جوار مستطيلات الظل.. ثم لا تلبث أن تستحيل إلى أشكال ممطوطة ومائلة من الظل والضوء كلما ازداد انحدار القمر نحو الأفق.. ونسيم مرح يدور ويميل ويسرع ويبطىء مباهيا بحريته..

الكل مجبرٌ على العودة..

نضبت الجيوب واستنزف الأطباء كل ما ادُخِرَ من قروش.. وتجرع المرضى أدوية لم يكن لها أثر سوى إفناء الدخول القليلة.. وبقى المرضى يعاقرون آلامهم.. وأُعيدَ تشكيل خريطة الأحلام.. واستُبْدِلَتْ بأسماء الأطباء بئرٌ! بئرٌ يحوطها سور حجرى قديم! واستبدلت بزجاجات الدواء جرعات ومسحات من ماء البئر المباركة!

= ستجد نتيجة بإذن الله.. البعض يأتى بدلا من الشهر عشرة.. والكل يعود مجبور الخاطر..

ــ لست غريبة يا "ست شكور".. الانتقال يكلفنا مبالغ تجهدنا.. عربة مخصوص من آخر الدنيا.. والطعام خارج الدار غالٍ.. غير المبيت والشاى.. وأنا لم ألجأ للبئر إلا بعد أن أنفقت كل مالدى.. ولم أعد أملك ما أدفعه للأطباء..

زاد حنو الصوت المتلألئ الشفوق:

= لا تحمل هما ياحاج.. لن آخذ منك مليما

ــ لم أقصد ذلك يا....

= الخير كثير هذا الشهر.. والحجرة مشغولة بثلاثة مرة واحدة.. والونس مالئ الدار.. وأنا والله أسعى للصحبة أكثر مما أسعى للفلوس..

"لا تمنعى البركة عن أحد يا شكور يا بنتى .. النعمة من الله وليس لنا فيها شئ .. إن منعناها تزول والعياذ بالله "

يالدفء الليالى القمرية !

ناس.. وأصوات.. وأبواب تـُفتَحُ وتقـفل لثلاث ليالٍ كاملة.. ووَقْعُ خطوات يعزف نغم الونس والصحبة.. وحناجر تنطلق كل حين لتنادى: "ياست شكور، ياست شكور"! وإبريق شاى يبقبق دوما على وابور جاز.. وملاعق تذيب السكر وتدغدغ الأكواب فى شقاوة.. ورائحة طعام تنبعث مختلطة بروائح القرفة والحلبة.. ودجاجات سمان تذبح أعناقها لتختلط رائحة ريشها المنزوع بباقى روائح الحياة المنبعثة من الدار.. وشيئا فشيئا تتهذب الروائح كلما اقترب موعد الغداء.. و"الست شكور" تروح وتجئ مشمرة عن ساعديها المكتنزين.. ويتردد صوتها المتلألئ العذب الودود فى الآذان.. وتحمل القلوب عرفانا كلما سمعت جملة:

"من عينىّ"!

= ألم تتزوجى يا ست "شكور"؟

ـــ بلى، تزوجت.. لكنه ذهب للحرب....

"لا تخافى يا شكور.. قليلون من لا يعودون من الحرب.. والكثير يعود"

وكان "هو" من القليل الذى لم يعد! ترى أى تراب ضم جسده؟ وهل كان عليه حنونا مثلما كانت هى؟

مرت تلك الأيام وانقضت.. حين كانت "شكور" تنتفض كالملذوعة كلما ضبطت نفسها متلبسة بالاستكانة بينما الحبيب ملقى هناك.. لاتدرى أين؟ لاتدرى بماذا أحس حين جاء الأجل؟ لاتدرى فيم فكر؟ لاتدرى كم مَرَّ من الوقت وكم عانى من العذاب قبل أن يضمه الله إلى رحابه؟ تنتفض حيرة وهلعا.. رفضا وغضبا.. ونارٌ فى القلب تكوى.. ورغبة عارمة فى إيذاء النفس.. فى تحطيم أى شىء.. فى التنفيس عن الصهد المدفون فى الجوانح.. راح السند والصدر الحنون والحضن الدافئ.. وتشق صرختها الفضاء الواسع حول "صافورة" لتناديه.. لكنها ــ أبدا ــ لا تصل إليه.. ودائما يعود نداؤها مهزوما مقهورا.. ومرةً بعد مرةٍ.. هزيمةً بعد هزيمةٍ.. يتهيب الصوت المنادى قبل أن يغادر حنجرتها.. وتنحسر مفردات الحزن المبعثرة خارج القلب.. وتعود لتدخله فى انكسار.. تسكن فيه..

تتحوصل.. تكمن.. وتصبح جزءا منها.. من: "شكور".. التى كان لها ـــ يوما ـــ حبيب!

= كثيرون راحوا فى الحرب.. شباب كالورد..

ـــ نعم، كالورد..

هُيِّئ للشيخ أنه سمع تهدجا باكيا فى صوتها.. تأملها بعينيه الواهنتين فى ضوء القمر المراوغ.. فلم يرَ إلا ابتسامتها تتلألأ على شفتيها الودودتين..

"انقضى وقت البكاء.. وجثم الوقت الذى لا ينقضى إلا بانقضاء العمر.. وقت المداراة واصطناع الراحة وادعاء النسيان.. ومجاراة الناس فى أحاديثهم ومسامراتهم.."

أخرجها آذان الفجر ـــ الذى جاء نديا كأنما نزل عليه القَطْرُ ـــ من أشجانها.. نشطت لحلول الفرصة لكى تؤدى عملا.. مدت يدها خلف الباب وسحبت حصيرًا اصطف عليه البعض.. وتوارت هى داخل البيت بينما كان الإمام يردد:

= الله أكبر..

المشهد الثالث

الشمس تسطع..

تسكب نارها على بئر"صافورة"..

وتحت وطأة ضوئها المبهر تفقد الأطلال مهابتها.. فالأحجار التى كانت تبدو جليلة كهرم عتيق مبعثر صارت فوضى تنتقص من سموّ المكان.. والرمال فى وهج الشمس تلوح جافة شديدة القسوة.. والسور الملتف حول البئر يبدو كأنه يخنقها! مفردات رعناء لمشهد استفزازى سخيف!

الساحة خالية.. كأنما سحب القمر معه أحباءه حين ذهب.. المهابة والقدسية والخشوع والراحة كلها رحلت معه.. وصار كل شىء عاريا مجردا..

الحجر أسفر عن حقيقته كجماد.. والرمل صرح أنه ضد الرى والإنبات.. والبئر تبدو جافة راكدة.. والسماء أعلنت سخطها على كل هذا المشهد ففتحت طاقات الحر لتحرقه بلهبها !

صمت تام صارم ثقيل.. يتواءم مع كل المفردات الصارمة..

ومن بعيد.. تلوح بيوت "صافورة" ساكنة صامتة هى أيضا.. ونخْلات قليلة لم يتح الظلام من قبل أن نلحظ وجودها.. واقفة كمردة تحرس ساحة القسوة..

هُوَ هُوَ.. نفس البئر..

وهى هى نفس الأرض..

لكن.. حين تتم استدارة الوجه الحالم المضئ فى السماء.. وتمتلئ ساحة البئر بالمريدين.. تنبض الحياة رقيقة لينة فى هذا الكيان الليلى.. وتتناغم همهمات الناس مع خرير المياه العذبة فيكثر الحب ويسود الرضا..

وتحت لهب شمس الصحراء الطاغية.. يُسْمع صوتٌ.. صوتٌ يتفق والمشهد النهارى الملتهب.. هدير آلة.. يزداد.. يقترب.. صيحات مستنكرة تكسر جو العزلة.. يقترب الهدير أكثر.. تزداد الصيحات ذبحا للحناجر.. توشك الآلة أن تظهر حين يندفع الرجال نحو البئر.. يلتفون حول سورها الحجرى العتيق.. يتصببون عرقا.. يتفجرون غضبا.. الجرافة تمضى فى سماجة والأكف تدق على

جسمها.. تتمادى فى التقدم.. يتمادون فى الدق.. يندفع البعض أمامها.. يتمترسون ملوحين صائحين فى قائدها:

= ماذا تفعل ؟

تتوقف أخيرا.. يقفز شاب إلى داخلها ويمسك بتلابيب السائق:

= لن تتحرك خطوة! والله العظيم أقطع رقبتك!

يقفز آخرون وراءه بينما يتجمهر الباقون حولها.. يصبون جام نظراتهم على سائق الجرافة.. يزعق شيخ مناديا آباء الشباب ليأخذوهم ويقصروا الشر.. تمتد أيدى لتبعدهم عن السائق وهم ينزعونها عن أكتافهم فى غضب.. تزداد ثورتهم كلما ازدادت محاولات إبعادهم..

يظهر الضابط وعلى كتفيه النجوم تتوعد! ينظر فى صلف للشباب الثائرين الذين فاجأهم ظهوره فوقفوا مبهوتين يرددون نظراتهم بينه وبين سائق الجرافة الذى خرج صوته لأول مرة.. فشكى وبكى!

= خذوهم من هنا فورا! وكل من ينوى أن يفعل مثلهم يعقل أحسن له! لن أكرر كلامى مرة ثانية!

العساكر يتقاطرون.. يتراصون – بلا مبالاة – مشكلين دائرة حولهم..

= ياحضرة الضابط نريد فقط أن نفهم!

قالها شيخ يذوب انكسارا.. يبتسم ابتسامة التضاؤل التى حُفرت على شفتيه.. وما عاد قادرا على أن يبتسم غيرها..

ــ من رحمة ربنا عليكم أننى صبور! سأفهمكم! ولو أننى واثق من أنكم تفهمون فعلا وتدَّعون عدم الفهم.. لكن لابأس سأفهمكم..

= الله يخليك يابنى

يدعو الشيخ مستجديا رحمته!

ــ هذه الجرافة (وأشار بيمناه) ستردم هذه البئر (وأشار بيسراه).. لأنها كما تعلمون بئر ملوثة بمياه الصرف الصحى.. ولاهى مباركة ولا غيره!

تموج الحشد.. لاح الغليان فيه..

= الاستشفاء

= قطع الأرزاق

= منكم لله

=.....

=....

تقاطعت الاعتراضات فلم تصل غير جمل مبتورة.. عم اللغط.. زادت حركة الغليان فى الحشد الذى كان قد سكن بظهور الضابط.. يقفز من الجرافة الشاب الذى كان قد أمسك بتلابيب السائق.. يندفع نحو الضابط فى قفزة نمر.. يتراجع الأخير مشيرا لعساكره.. يمسكون به.. يتكاثرون عليه حين يوشك على الإفلات.. يطرحونه أرضا.. تدق أحذيتهم الغليظة جسده.. ترفس وجهه.. تصرخ امرأة ملتاثة:

ـــ آه يا "رفاعى" يابنى!

يجرها الأهالى بعيدا وصراخها يزداد عنفا..

ـــ كله يخرس .. لن أحذر بعد الآن

يهدر صوته كجرافة تجتث حقهم فى الدفاع عن بئرهم..

شبابٌ ينتفضون ليتخلصوا من الأيدى الكثيرة التى تحكم قبضتها عليهم لتنقذهم من غضب صاحب النجوم المتوعدة.. والشيوخ يتقيأون حكمتهم ويناشدون الأهالى أن يهدأوا ويقصروا الشر ويخافوا عى عيالهم..

الضابط يشير لجنوده فيهرولون.. وجوههم تقطر بؤسا.. ملابسهم متهدلة واسعة حائل لونها.. يصدعون لأوامره بحماس.. يتراجع الناس أمام هراواتهم.. ينقضون

على من يرفض المغادرة.. يقبضون على أطواق جلابيبهم ويطوحونهم.. يجرُونهم.. تشوب وجوههم مسحة من الرضا لقدرتهم على البطش بالضعفاء!!

تمتلئ سيارات "بوكس" بالرافضين وتجرى بهم إلى حيث لايدرى أحد.. ويجرى خلف السيارات آباء وأمهات واخوة وأبناء يبحثون عن ذويهم.. وتهوى أكف على وجوه وأقفية وتُذْبَحُ نفوس كانت كريمة.. وتنطلق ألفاظ نابية.. وتظهر كدمات وتقطر دماء دفاعا عن "أكل العيش".. ويحتدم الأمر.. وتدوى طلقات.. وتنفجر قنابل تقرح العيون.. وتعوى سيارات إسعاف.. ويتفرق المتمردون..

ضُرِبَ الحصار حول البئر..

العساكر حاملو الدروع والهراوات.. شكلوا دائرة مركزها سور حجرى عتيق تعلوه بكرة بدائية.. والساحة أُخْلِيَتْ تماما.. والعربات التى حملت الرافضين فاغرة أفواهها تنتظر فى شماتة ترحيل المزيد منهم..

دائرة العساكر ثابتة كأنها قدت من حجر.. لايزحزحها شئ حتى ولا صوت الضابط الذى عاد للارتفاع :

ــ إياكم أن يطأ احد هذه المنطقة

يخرج غير مكترث بالتحيات العسكريات المباركات التى "ضربها" له ضباطه وجنوده.. وبمجرد انفلاته من الدائرة ينتاب الضُبّاط الأصغر سناً ورتبة إحساسٌ بالعظمة يتناسب طرديا مع كَمّ البريق على أكتافهم.. يتركون الجمود الذى سيطر عليهم ويبدأون فى التحرك.. طواويس تتبختر فى كِبْرٍ.. تتحدث فى أجهزة اللاسلكى..

يصدرون أوامرهم فتنفتح دائرة الحصار قليلا.. يدخل بعض المدنيين العظام.. يفحصون المنطقة.. ينظرون فى ارتياب إلى بعض الأحجار.. يرمقون ذرات الهواء! يمدون رؤوسهم فى فوهة البئر.. يديرون البكرة ويملأون الدلو.. يتشممون المياه بتركيز..

ـ كريهة

ـ وعكرة

ـ التلوث واضح بالعين المجردة.. لسنا ـ حتى ـ فى حاجة لتحليلها!

ـ لا، هات عينة لنكتب التقرير.. اف! رائحتها كريهة جدا!

الضابطان الباقيان ينظران خلال النظارات المعظمة.. يقفان على الأحجار ويتطلعان نحو بيوت

"صافورة" الرابضة هناك.. يتجاهلان تعليقات المتزاحمين حول الدائرة:

ـــ والله يا باشا البئر مباركة.. ذقها سيادتك

ـــ أجيال وأجيال استشفت بماء البئر.. هل يَحْتَمِلُ المرضى شرب ماء المجارى؟

محللا المياه مازالا ينظران إليها.. يضعانها فى زجاجات يرفعانها نحو الشمس وينظران فيها.. يلتفت أحدهما للآخر ويهزان رأسيهما قرفا وأسى!

الزحام الذى استسلم بعد إقصاء قواده وشجعانه بدأ يمور من جديد فى أحد جوانبه.. ينشق فى هدوء.. يُسْمَعُ صوت امرأة:

= ابعد انت وهو.. أنا سأحدث حضرة الضابط

ـــ ارجعى يا "شكور".. مالك والرجال؟ "اختشى" عيب!

= "أختشى"؟ هذا أكل عيشى.. لابد أن أحدث الضابط..

ـــ الضابط ليس له يد فى هذا.. إنه ينفذ..

= سأرجوه ألا ينفذ!

تطل عيناها الودودتان من فوق كتف أحد العساكر المتحلقين.. ينبسط وجهها بابتسامة وضاءة حين ترى الضابطين الشابين

= بسم الله ماشاء الله.. خلقتما لتكونا ضابطين!

لايملك الضابطان إلا الابتسام أمام ابتسامتها الرائعة.. يعتدلان.. يتأملانها وقد أطربهما الإطراء!

= سامحانى لجرأتى.. فأنا امرأة طويلة اللسان! لكنكما فى عمر أبنائى!

تنظر للعسكرى بعينيها العذبتين وتدفعه برفق لتدخل للضابطين اللذين يشير أحدهما للعسكرى أن يدخلها.. فتدخل داعية لهم:

= ربنا يسعدكم يارب! أتريدون شايا؟ سأعد لكم الشاى!

يفجؤها صوت أحد الضابطين المدوى:

ـــ تأتين من آخر الدنيا وتثرثرين وتفسدين النظام لتصنعى شايا؟ هل نحن فى مقهى؟ أم أنك بلهاء؟

= نـــ... نعم.. مقهى ومطعم.. وفُرْ.. فُرْد.. فردق! أليس اسمه: فُرْنُقا؟

يبتسم النقيب "محيى":

ـــ تقصدين فندقا !

= سآتى لكم بالشاى.. فأنا لاعمل لى إلا ضيافة الوافدين إلى بئر "صافورة"

مازال الضابط العابس مستثــقلا وجودها:

ـــ اذهبى يا حاجة.. لانريد شايا..

قاطعته وابتسامتها المتسللة للقلوب لا تفارقها:

= لا مؤاخذة ياحضرة الضابط .. اسمى: "شكور" ولم يكتب الله لى الحج..

ـــ تحجين إن شاء الله!

يدعو لها "محيى" وهو يتأملها فى فضول بينما العابس يرمقه بغيظ!

= لا أظن.. فالحج أصبح مكلفا و....

ينتبه "محيى" حين يلكزه زميله ويؤنبه:

ـــ هل ستستمر فى هذا الحوار طويلا؟

= دعنا نقطع الوقت حتى يصل الباقون..

تفرك "شكور" يديها وتتسع ابتسامتها:

= أوَ ننتظر ضيوفا آخرين؟ سأبشر الأهالى إذن.. فنحن لا نرتزق إلا فى الليالى القمرية فقط.. وعلى قروشها نعيش باقى الشهر.. لكن ربنا جعل الخير فى قدومكم نهارا..

ـــ ألا تعملون باقى أيام الشهر؟

= فى الليالى القمرية فقط يأتى الناس للبئر.. ونؤجر منازلنا لهم لثلاث ليال.. وحين يرحلون تكون البيوت قد اطمأنت إلى ما يكفيها لباقى الشهر..

ـــ ولماذا لاتخرجون للعمل خارج "صافورة"؟

= خرج البعض.. لكنهم سرعان ماعادوا.. ضاق الرزق وكثرت الأفواه.. وتقلصت فرص الكسب.. نحن هنا والحمد لله مستورون.. فالبئر مباركة وتكفى كل من يسألها! ومن يوم أن جاورها الناس وعمروا أرضها وهى تمنحهم الخير وتسترهم!

ـــ وأنت يا "شكور" كيف تعيشين؟

= أمتلك " فُرْدُقاً " !

ـــ تقصدين: فندقا!

= أقصد المكان الذى ينام فيه الغرباء

ـــ نعم.. اسمه: فـُ نـْ دُ ق.. لكن هل فى "صافورة" فنادق؟

= ملآنة!

الدهشة تجذب العابس للمشاركة فى الحديث:

ـــ أليست "صافورة" هى تلك التى نراها هناك على مرمى البصر؟

= بلى.. هى!

يعتلى حجرا كبيرا وينظر خلال نظارته المعظمة نحو "صافورة" ثم يحتج:

ـــ أية فنادق؟ ماهى إلا بيوت صحراوية حجرية!

= نعم! بيوتنا!

ـــ أين الفنادق إذن يا سيدة الأعمال؟

= بيوتنا هى الفنادق.. نؤجرها للغرباء فى الليالى القمرية..

يتبادل الضابطان ابتسامتين إحداهما ابتسامة إعجاب والأخرى ابتسامة سخرية..

ـــ أوليس لكم عمل آخر غير الفنادق؟

= لنا طبعا.. فى أيام الضيافة نطبخ ونعد الشاى والحلبة والقرفة.. ونؤجر الحصر والملاءات.. ونملأ الأوانى من البئر.. و...

ـــ وماذا ستفعلون بعد أن نردم البئر؟

= تردمون البئر؟!

دقت "شكور" على صدرها

ـــ ياللك من خبيثة! أولم تعلمى أننا سنردمها؟

= بلى.. علمت.. ولكنكم لم تكونوا تعلمون أهمية البئر لنا.. كنتم تظنونها مجرد بئر عادية..

ـــ نعم.. لم نكن نعلم.. لكن علمنا لن يغير شيئا!

= كيف؟!

ـــ نحن يا ست "شكور" لم نقرر ردم البئر.. القرار أصدرته جهات أخرى.. نحن فقط ننفذ.. ولا نستطيع ألا ننفذ!

استدعت "شكور" ابتسامتها الراجية التى كانت قد غاضت:

= لكنكما لن ترضيا بقطع عيشنا..

ـــ نعم.. هذا....

يتلعثم "محيى " فيرميه العابس بنظرة مغيظة.. ويقاطعه مثبتا عينيه فى عينى "شكور":

ـــ ولكننا سننفذ!

يقولها ببطء وهو يضغط على الحروف ويظهر أسنانه العلوية والسفلية معا!

تنظر "شكور" للضابط "محيى" فيدير وجهه متحاشيا وقوع عينيه فى عينيها..

"القتل الرحيم.. يمكننا أن نطلق هذا الاسم على مهمتنا هذه.. القتل الرحيم.. لكى نحافظ على صحة أهالى صافورة علينا أن نقتلهم جوعا وفقرا.. نعم لكى لا يجد المرض إليهم أى سبيل.. يالها من مهمة شريفة !"

ينهض العابس متمتما:

ـــ اقترب موعد وصولهم

يلتقط "محيى" عصا رفيعة ويأخذ فى النقش على الرمال.. تتابع "شكور" ما يدور حولها فى حيرة.. تجفل حين تتقدم أعداد هائلة من العساكر.. يخبطونها.. يدفعونها.. أصوات الأهالى ترتفع:

ـــ ربنا هو المنتقم!

تدور "شكور" بين العساكر باحثة عن "محيى" ويدور هو باحثا عنها.. صوت الجرافة يهدر ثانية.. يشير العابس فتتحرك جرافة ثانية.. ينخفض ذراعها ويَجْرِفُ الرمال متجها نحو البئر.. بينما تدور "شكور" باحثة عن "محيى"..

الفصل الثاني

المشهد الأول

قبل الغروب بقليل..

الشمس المتوارية خلف دار "شكور" تنشر أشعتها الحمراء فى الأفق.. والسماء القاتمة تنذر بليلة ظلماء.. ونجم أرعن خرج دون حياء يتلألأ أمام سيدته التى لاتزال فى أفقها لم تغب.. وباب دار "شكور" تعبث به رياح موحشة فيَصِرُّ فتحا وقفلا.. وكثير من الإهمال تراكم على النوافذ والجدران والأسطح.. بينما سكب القهر شعورا ثقيلا مريرا لاح فى أعين كل من بقى فيها من أهلها.. وتردد فى أصوات "شكور" وجارتيها الجالسات أمام الدار..

ــ لو هجم اللصوص على "صافورة" لنهبوها فى دقائق وهى خالية من ناسها هكذا!

– ماذا سينهبون؟ هل تظنين أن اللص سيأتى من آخر الدنيا ليسرق ملابسنا القديمة وخبزنا الجاف؟

ـــ ربما يا "زُهْرة"! فاللصوص أيضا منهم المحظوظ ومنهم المنحوس!

تتنهد ثالثتهم مبتسمة:

– الله "يجازيكى" يا "شكور"! أما تزال لديك القدرة على الضحك؟

تنقض "زهرة" ذات الوجه الكئيب والسحنة المقلوبة نافثة كدرها وسخطها.. تنقض كحدأة جائعة عثرت فجأة على "كتكوت":

ـــ وما يحزنها يا "نرجس"؟ لم يكن لها أحد لتحزن على غربته وفراقه!

"لم يكن لى أحد؟! كيف لم يكن لى أحد وقد كان وجهه مضيئا كالقمر؟ كنت نور عينيه وكان أهلى وعزوتى.. لم يطلنى عوز ولا كرب وهو معى.. كل همٍّ يحمله عنى.. لكنه راح! وقَبْلَكُنَّ جميعا ذُقْـتُ عذاب الفراق.. تجرعت مرارته قطرة قطرة.. وحيدة لا يشعر أحد بمصيبتى.. البرد يسكن كل ركن فى الدار.. بردٌ يفتُّ

عظامى.. والصمت لا يترك لى أى فرصة لنسيانه.. والناس سرعان ما انفضوا.. ونسوا.. جرفتهم حياتهم فماعاد أحد يقول: ربنا يعوض عليكى يا شكور! وحدى تأكل النار قلبى.. لماذا راح؟ ولماذا أحرم من دفنه؟ لماذا أحرم من زيارة قبره؟ كنت سأذهب إليه.. وأفضفض.. وكان سيسمعنى! كان قادرا على أن يحس بى حتى ولو كان فى قبره! قالوا: فُقِدَ.. وقالوا: أُسِرَ.. وقالوا: مات! وقلت: أنتظر.. ربما.. ربما ماذا؟ لست أدرى!"

عاودت "زهرة " لدغها:

ـ قلبها خال! تعيش بطولها! على من تحزن؟

قالتها وهى تقلب سحنتها أكثر وأكثر.. وتعقد ما بين حاجبيها وتمد كفيها متسائلة.. ثم تخبط ظهر يسراها ببطن يمناها فى غل! لم تلحظ شرود "شكور".. فهى دائما لاتلحظ إلا ما يثيرها ويغضبها.. وتتجاهل كل ما قد يرضيها أو يهدئها!

= ربنا أكرمنى يا "زهرة"! وها هو قد أكرمك كما أكرمنى!

ـ تشمتين بى يا "شكور"؟ هل جننت؟

= أشمت بمن وكلنا منقوعون فى الهم؟! يا "زهرة" ياالختى حلى عقدة النكد.. فكيها!

ـــ هل سنتبارى فيمن منا الأكثر هماً؟

تقولها "نرجس" وهى تجمع أطراف أناملها وتهز كفها "لشكور" راجية إياها أن تترفق و"تفوّت".. فتقول "شكور":

= الحمد لله على كل شئ.. نحن أحسن من غيرنا.. إرم الهم يا "زهرة" يرميكِ..

ـــ أرميه؟ معذورة! تحجر قلبك وماعدت تحسين قسوة انقطاع صوت زوجك وغربة ولدك والعيش مقهورة دمعك على خدك لا يجف!

= تانى يا "زهرة"؟ هل انهبلتِ؟ ادعى لهما أن يرزقهما ويوسع عليهما ويردهما سالمين؟

ـــ هل ستعلميننى الحنان يا ام قلب خال؟

اندفعت "نرجس" التى كانت ـــ من قبل ـــ تطالب "شكور" بالتروى:

ـــ دعيها يا "شكور".. لن تتعلم.. هل هناك أكثر من هروب زوجها من نكدها لترتدع عما هى فيه؟

= هروبه؟ فشر! هو فى يدى كالخاتم!

ـــ حين يكون لديك خاتم!

تقولها "نرجس" ضاحكة وهى تقبض بتودد على ساعد "زهرة" وتميل برأسها على كتفها مداعبة.. لكنها ترفض دعابتها.. وتهب فى غضب تاركة إياهما.. تشوط فى طريقها حصى وتعفر رمالا..

"يعيرننى بك! يا ناكر الجميل! ماكنت تحلم بدار كدارنا ولا بعزوة كعزوتنا.. يوم وافق أبى عليك لم تنقطع دموع أمى.. قالت له: أتعطيها للشيال؟ فرد عليها مشيرا إلىّ: أنظرى لوجهها لتعرفى قيمتها! زَيَّنَ لك أن تخطبنى .. وقال لأمى محتجا على بكائها: احمدى ربنا أن وجدنا من يزيح كربنا! سمعته بأذنى هاتين.. وقلت فى نفسى مع الشيال قد تكون الحياة أرحم.. على الأقل سيقدر منزلتى ومالى.. لكنك.. أف.. كان يوم أسود!"

تدخل دارها.. تبرطم.. تلعن اليوم الذى رأت فيه وجوههن ووجهه.. تخبط أبوابا وتوقع صحونا! ثم تعود فى اليوم التالى لمجلسهن على استحياء.. تقترب ممن شاجرتهن بالأمس وترمقهن بوجل وتَرَقُّب.. هل سيرفضونها؟ ويأتيها صوت "شكور":

ــ تعالى يا "زهرة"

وتسرع فى خطوات قصيرة وقد علت فمّها ابتسامةٌ تستغرب نفسها على هاتين الشفتين! تخطو فى اضطراب.. وعادة ما تتعثر فى طرف الحصير أو تدوس على يد إحدى الجالسات فى خراقة.. تجلس راضية فى البداية.. لكنها تجدهن يلخبطن ويسئن الفهم! وتلاحظ أنهن يتعمدن إغاظتها.. وأحيانا تتركز نظراتها على شامة فى خد إحداهن.. أو خصلة شعر تهدلت فوق جبين أخرى.. فيتصاعد داخلها بخار الحنق وسرعان ما ينطلق من فمها.. لتجد نفسها تشاكس صاحبة الشامة وتناكدها.. وتحاول الأخريات إثناءها.. فتلمح فيهن مزيدا من الأشياء التى تثيرها أكثر.. ولا مفر من الغضب والانسحاب المندفع الساخط!

بعد انصراف "زهرة".. تصمت "شكور" و"نرجس".. تجتران ذكريات قديمة.. تتأملان "صافورة" التى ما عاد القمر يُخيِيها.. والتى صار هلالها يمتلئ ويستدير حتى يكتمل بدرا وتمر لياليه الثلاث دون حدوث طقس استشفائى واحد..

أقمار كثيرة اكتملت وتناقصت ولم ينتبه أحد إليها.. ما عاد الناس يسألون عن ظهور الهلال.. وغرة الشهر.. رغم

أن القمر مازال حلْوا كما كان.. وديعا ودودا.. لم يتغير.. لماذا إذن تغير ماء البئر؟

ـ حين يأتى الرجل والأولاد سيحضرون النول معهم..

= إنهم لم يسألوا ـ بعد ـ عن ثمنه..

ـ أهى مشكلة يا"شكور"؟سيسألون ويعرفون ويشترونه

= ثم نبحث عمن يعلمنا.. وعمن يبيع لنا الصوف.. وعمن يشترى منا الأكلمة.. و....

تقاطعها "نرجس" متظاهرة بالذعر:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم! أما زالت "زهرة" معنا؟

= "سرها باتع"!

ـ سنتعلم إن شاء الله.. وستُفْرج.. المهم أن تكفى النقود..

= قولى لى: هل حقا سيتزوج زوج "زهرة"؟

ـ هذا ما يقوله ولدها "رفاعى"

= مسكينة يا "زهرة"!

ـ لن يزداد نكدها عما هى فيه!

"البعيد عن العين بعيد عن القلب.. وإذا كان زوج زهرة معذورا.. أليس من الممكن أن يفعلها الآخرون بدون عذر؟ بعيدون هم.. لا أحد يعرف عنهم شيئا.. ولا أحد يدرى ماذا يفعلون ولا بمن يلتقون.. وسيدارى بعضهم على بعض.. ونحن هنا نائمات على آذاننا.. وحين تقع الفأس فى الرأس نقول ليتنا ما تركناهم!"

ــ خالة "شكور".. خالة "شكور"

زقزقات حلوة تنادى.. وفتيات ثلاث يتطايرن نحو الذراعين المفتوحتين.. ويرتمين فى حضن "شكور" الدافئ.. يتعانقن بحب واشتياق كعادتهن حتى لو التقين فى اليوم عشر مرات..

ــ جاءك ضيف يا خالة؟

= ضيف؟!

تساءلت "شكور" باستغراب.. هى أبدا لم يأتها ضيوف من قبل.. ليس لها أحد ليجيئها زائرا!

يظهر الضابط "محيى" من خلف الدار.. يبدو أصغر سنا فى ملابسه المدنية.. تهب "شكور" واقفة بأقصى سرعة يتيحها لها وزنها الثقيل.. حين تقف تظهر تجعدات ثوبها التى

تكاثفت لطول الجلوس.. تسرع مادة كفها وهى تتمايل بجسدها السمين النشيط:

= يا ألف أهلا وسهلا

ـــ كيف حالك؟

= الحمد لله.. خيرا؟

ـــ خيرٌ إن شاء الله.. ما جئت إلا للاطمئنان عليك!

يأتلق الود فى عينيها.. ياكرم الله.. أخيرا جاد عليها الزمن بمن يسأل عنها.. ومن؟ ضابط كالقمر!

= الله يسعدك.. أنا بخير

لا تدرى لــِمَ اجتاحتها رغبة فى البكاء؟

عينا "نرجس" تتفحصان الضيف بفضول وهما مترعتان بالدهشة من كل شى فيه.. ملابسه.. ملامحه.. لهجته.. وخاصة من إقدامه على تلك الزيارة.. من أين عرفت "شكور" ـــ المقطوعة من شجرة ـــ هذا الشاب؟

= سلمى على حضرة الضابط يا "نرجس"..

"ضابط؟! أيكون هو؟ أيكون هو الذى...؟"

= الحمد لله أنكما بخير؟

ـــ ما زلنا نحيا رغم ردم البئر

"آه منك يا قاطع الأرزاق.. جاء ليطمئن علينا! الله الله! يقتل القتيل ويمشى فى جنازته"

أطلقت "نرجس" صوتها الموبخ:

= "صافورة" خربت وانقطع خيرها!

هذا الواقف أمامها يدعى البراءة هو الذى طمرَ أرزاقهم وشتت شملهم ثم جاء ليطمئن عليهم!

"كان يوم اسود يوم رأينا وجهك!"

تتحرج "شكور" حين تقرأ أفكار "نرجس":

= خرج الناس وراء رزقهم يا نرجس

ـــ كان رزقهم بين أيديهم! الله يجازى.....

تقاطعها "شكور" قابضة على ذراعها:

= ربنا يفتح عليهم.. أبواب الرزق كثيرة..

ـــ وكيف تعيشين يا "ست شكور"؟

= كنت أدخر مبلغا أعطيته لزوج "نرجس" ليتاجر به.. وما يفتح به الله عليه نتقاسمه سويا..

ـــ أى نوع من التجارة؟

= محافظ وأمشاط وجلود بطاقات وإبر

تستأنف "نرجس" توبيخها:

ـــ ربنا جعل فى قضاه رحمة.. لانسأل غيره!

تلكزها "شكور" فى جنبها!

= سأعد لك لقمة من الموجود ثم تستريح قليلا.. ماأطول المسافة التى قطعتها لتأتى إلينا!

يلمح الضابط أصابع "نرجس" التى تقرص ذراع "شكور" مستنكرة استضافتها لقاطع الأرزاق ومفرق الجماعات..

ــ لا لا.. سأنصرف الآن ما دمت قد اطمأننت عليكم.. الحمد لله أنكم بخير

= فرصة ياابنى لأفتح الفردق!

قالتها وهى تربت على صدره مبتسمة.. مدَّ يده فى جيبه وأخرج مظروفا قدمه إليها.. أعادت يده الممدودة وقد عاودتها نفس الرغبة فى البكاء..

ــ لا تَرُدِّى يدى!

= مستورة يا حبيبى.. مستورة!

انتبهت "نرجس" لصوت "شكور" الباكى.. انصرفت عن الضابط إلى صديقتها.. أحاطت كتفيها بذراعها.. التقطت نظرات الود التى تملأ عينيها فرقَّتْ مشاعرُها.. لم تلتفت نحو الضابط.. ظلت تتأمل عينى صديقتها المُنَدَّاتَيْن وتتجنب النظر إليه..

= طول الطريق وأنا أسأل نفسى: هل ياترى سأجدك هنا أم ستكونين قد رحلت مع الراحلين؟

ــ ولدى "رفاعى" مثلك .. يخشى دوما أن أكون قد رحلت.. ما أشد الشبه بينكما..

رمقته "نرجس" بحذر.. هو فعلا يشبه "رفاعى".. نفس الطول والعرض والسن والسمرة.. ونفس الهم **فى عينيه!**

تمتمت بحروف متداخلة:

ــ اجلس!

ابتسم الضابط لدعوتها المقتضبة:

ــ اشتقتما لنشاطكما القديم؟

= فرصة يا ولدى.. منذ ردم البئر تعطلت كل "الفرادق".. حتى العساكر المرابطين حول البئر يأتيهم طعامهم وشرابهم من بعيد بالسيارة ولا يَدَعُوننا نقدم لهم كوب شاى ولا حتى شربة ماء..

ــ قلنا سنسترزق منهم.. وهم كثيرون! لكن..! بالمناسبة لماذا يقيم كل هؤلاء العساكر هنا ليلا **ونهارا هكذا؟**

ــ يخشون أن تعيدوا حفر البئر

= الناس رحلوا.. خافوا على أبنائهم فزينوا لهم الرحيل.. ماكان لهم سوى هذه البئر قوتا وزادا.. فلما راحت راحوا!!

ـــ هذا أفضل.. حتى لا تعرضوا أنفسكم للأذى..

= هيا يا "نرجس" لنعد لقمة لحضرة الضابط

ـــ لا لا.. سأشرب الشاى فقط..

= لكن....

ـــ لن أستطيع.. يكفينى الشاى

جرَّتْ "شكور" صديقتها من يدها.. وانسحبتا إلى الدار لتُعِدَّا الشاى سويا.. وحين توارتا.. انصرف "محيى" بهدوء بعد أن وضع شيئا على عتبة الدار ..

المشهد الثانى

نفس الجولة اليومية..

"شكور" تتمشى فى طرقات "صافورة".. تعاينها.. تتفحصها.. تسقى أشجارا عريقة زرعها السابقون ورعوها.. تحتفى بوجوه قليلة قد تتمكن من الابتسام لها قبل أن تتوارى خلف نافذة أو وراء باب.. وجوه كانت تضئ عتبات الدور وجنبات الحارات فى زمن الصفاء الذى رحل..

ابتسمت للغراب الناعق على قمة الشجرة العجوز.. أحست تجاهه بالعرفان لأنه بقى فى عشه.. ولأنه مازال ينعق نعيقه الذى صار فى أذنيها شدوا.. ومازال "يحجل حَجّله" الذى كانت — صغيرة — تقضى مع رفيقاتها ساعات حلوة يقلدنه ويتهكمن عليه.. تستجدى ذكريات حلوة لزمان ولى!

حين رحلوا.. بقيت هى.. بقيت مع كل من لم يستطع ترك "صافورة".. وكيف تتركها؟ كيف وهى لم تعرف لنفسها وطنا إلاَّهَا؟ كيف وهنا دار أبيها الذى جاء حاملا إياها والحليب مازال يبلل شفتيها الرقيقتين.. مصطحبا أمها العليلة.. آملا أن

تحل عليهم بركة بئر "صافورة".. وحين حلت البركة وشفيت الأم أقسم لا يغادرن أرض "صافورة" التى منحته خيرها وبركتها.. وعاش مجاورا لبئرها.. يتحسس سورها الحجرى كأنما يمسح وجنة وحيدته "شكور".. ينفطر قلبه إذا تخلخل حجر منه.. وبسرعة يرده إلى مكانه ويحشو الفراغات حوله "بالمونة".. يقبع طوال نهاره وليله حارسا البئر.. والأولاد العفاريت يحومون هنا وهناك.. يتحينون الفرصة لإلقاء أى شئ فيها.. فرع شجرة.. زلطة.. حفنة رمل.. أى شئ.. فقط ليصيحوا:

ـ الْحَقْ يا عم ابو شكور

وينتفض عم ابو شكور غاضبا.. ساخطا.. وحين "يلحق" بأحدهم يمسكه من كتفيه وينحنى ناظرا إلى عينيه:

ـ أهكذا؟ تقذف نعمة ربنا بالرمل؟

ويصمت قليلا مثبتا عينيه فى عينى العفريت الصغير ثم يطوح ذقنه فى وجهه:

ـ امشِ!

عندها يصيح الصغار وتعلو ضحكاتهم.. فقد جاء المشهد مطابقا تماماً لكل المشاهد السابقة.. وقيلت كلمة الختام بنفس الطريقة التى كانوا يتوقعونها! وحين ينصرفون باحثين

عن ملهاة جديدة.. يسرع أبو "شكور" للبئر.. يتدلى فيها حتى يكتنفه خطر السقوط.. يفتح عينيه لأقصى ما يمكنه عله يستطيع أن يرى ما ألقاه العيال فى جوفها.. يُنْزِلُ الدلو ويسحبه ويتأمل الماء.. يتشممه.. يملأ به كفه ويريقه متفحصا.. ثم يعود ليقبع على مقربة منه متيقظا!

أحيانا كانت "شكور" تشارك الأطفال شقاوتهم ومشاكستهم لأبيها.. لكنها سرعان ما تتعاطف معه حين ترى فزعه وقلقه على البئر.. وتشعر بالاستياء من نفسها.. فتعود لتكمن بجواره .. يسألها:

ـ كنتِ معهم يا "شكور"؟

فتهز رأسها ناظرة للأرض.. وتأتيها كلماته:

ـ حرام يابنتى.. نعمة ربنا!

كيف تتنازل "شكور" عن نعمة ربنا؟

كيف ترتحل إلى البلاد الأخرى التى لم ترها أبدا؟ كيف ستتحدث مع الآخرين؟ وهل من الممكن أن تستيقظ فلا تطالعها جدران بيتها هذه؟ وهناك.. إذا أرادت الخروج من مأواها.. أين ستسير ولمن ستذهب وكيف ستعود؟ ستتوه قدماها إذا وطأتا أرضا غير هذى الأرض!

تحس نفسها حفنةً من تراب "صافورة".. إذا تطاير بعضها ستحمل الريح لها ـــ من الأرض الطيبة ـــ بعضا آخر لتكتمل حفنة من جديد.. لكن إذا ذهبت مثل الذاهبين.. وتطاير بعضها.. من أين ستأتى الريح ببعض آخر؟ هناك.. لن تكتمل.. لن تكون هى "شكور".. ستصبح واحدة أخرى.. واحدة فيها شيء من "شكور" وليس فيها أشياء كثيرة منها.. أشياء تساقطت وضاعت فى طريق لا يجب أن تمشيه..

حارات "صافورة" الضيقة الملتوية.. اصطبغت بلون شاحب غريب.. وكسيت جدرانها أحزانا وآلاما.. وأصبح من النادر أن يُسْمع فيها صوت أو ينعقد فيها مجلس سمر.. توارى الذين لم يرحلوا فى بيوتهم وانطفأ غرامهم بالوصال والتجمع.. وكأن البئر أخذت فى جوفها مرحهم وسعادتهم!

مصمصت "شكور" بشفتيها وهى تعبر عتبة الدار الرحبة.. دار "نرجس".. رفيقة الطفولة والصبا والشباب والكهولة.. كم كان مرحهما طفلتين حلوا عذبا! وكم كان إحساسها "بشكور" وبكل ما يخص "شكور" مرهفا صادقا! أيام بطولها تنقضى وهما معا فى دار "نرجس".. أعمامها صاروا أعمام "شكور ".. وأخوالها صاروا أخوال "شكور" وجدها

وجدتها وأبناء عمومتها وأبناء خئولتها.. أفسحوا لها مكانا فى القربى.. وارتاحت "شكور" لدفء اللَّمة وهيبة العزوة لديهم..

تهمس لأبيها:

= ما أسعد "نرجس" بعائلتها الكبيرة!

فيحكى الأب:

= عائلة "نرجس" هنا منذ زمن طويل.. فى البداية جاء جدها الكبير بمفرده.. تاه فى الأراضى الصفراء التى ليس لها أول ولا آخر.. وبعد أن انقطع أمله فى النجاة لاحت له البئر.. أحيته وصدت عنه الموت الذى كان قد فتح شدقيه ليلتهمه.. جاورها.. وبنى داره التى ترينها هناك.. تزوج وأتى بعروسه إلى جوار البئر.. وأنجب.. ومرت السنوات وكبر صغاره وأصبح لهم أبناء.. ثم صار للأبناء أبناء.. وكبرت العائلة وظهرت بجوار البئر بلدة صغيرة عرفها الناس باسم الجد الكبير "صفر".. وعاشوا فى خدمة البئر التى منحتهم خيرها وبركتها.. لا يمنعون ماءها عمن يطلبه ويفتحون بيوتهم لكل وافد يلتمس الشفاء..

بعيدة تلك الأيام!

وبعيد هو اليوم الذى غادرت فيه "نرجس" أرض أبيها وجدها وجد جدها.. ليس بعيدا بقدر ما مر بعده من أيام.. لكنه بعيد بقدر ما لحقه من هموم جثمت على القلب لتؤيسه من الحلم فى عودة ما كان!

رحلت "نرجس".. جَرَّبَ الرحيل بعضٌ من رجال عائلتها ثم عادوا لِيَقْطُرُوا الجميع إلى حيث وجدوا لأنفسهم مأوى وملاذا ولقمة عيش..

= تتركين دارك يا "نرجس"؟

ـــ أكل العيش مر! والعيال يكبلوننا يا "شكور"!

= والدار؟

ـــ البركة فيكِ.. ارعيها واحرصى عليها مادُمْتِ ترفضين الرحيل معنا! ربما نعود إليها يوما!

وحاولت "شكور" أن تصون الأمانة.. وأن ترعى دارا تركها أهلها سعيا وراء لقمة العيش.. تذهب إليها كل يوم.. تجوس فى جنباتها.. ترتقى سطحها.. تنظر إلى حوائطها وهى حائرة:

كيف تكون رعاية الدور المهجورة؟

من فوق سطح دار "نرجس" تطلعت "شكور " بعيدا نحو البئر.. صنعت بكفها حاجزا يحجز الشمس عن عينيها ودققت:

"ما للمنطقة قد فقدت ملامحها؟ أين الأطلال المحيطة بالبئر؟ كنا نراها من هنا.. أم أنهم أزالوها حين اكتشفوا ضررها هى الأخرى؟"

أنَّتْ السلالم المصنوعة من شق الشجر تحت وطأة وزن "شكور".. وحين انتهى أنينها كانت "شكور" تخرج ساهمة من باب الدار..

"قد يختلط الأمر على الناس ويظنون الخبيث طيبا.. البئر كانت طيبة.. كنا نظنها طيبة.. لكنها لم تكن كذلك.. كانت مخلوطة بمياه الصرف الصحى! سبحان الله! مياهها الرائقة السائغة العذبة كانت نجسة! الأساتذة فحصوها وأكدوا خبثها! ما نظنه دواء ربما يكون هو الداء.. لكننى.. لكننى أحبك يا بئر صافورة!"

فى مدخل دارها القريبة من دار "نرجس" جلست "شكور" أمام النول الذى تركته لها صديقتها حين رحلت.. وقالت:

ــ شئ ترتزقين منه

وكل عدة أسابيع يشترى لها "رفاعى" ــ بثمن الأكلمة التى يكون قد استطاع بيعها ــ خيوطا وأصباغا وخزين طعام قد لا يكفيها حتى عودته القادمة.. يلقى حمله عندها.. يتنشق

عبير أرضه فيها.. يسألها أن تقص عليه ما كان من أيام "صافورة".. وتكمش أمه "زهرة" لترتوى روحها اليابسة بذكرى الماضى الندى..

"كنت أضيق بوحدتى فى دار أبى.. أستأذنه لأذهب إلى نرجس..تبهجنى الوجوه الكثيرة هناك.. والأصوات المتداخلة.. والصحبة الدائمة..أجرى فى الدار الرحبة وألعب وأضحك.. ثم أتذكر دارنا الضيقة.. وبابها المشقوق.. فأشتاق لأبى الجالس فيها وحيدا.. يتطاير احتفائى بما لدى نرجس.. أقطع المسافة حتى دارنا وأنا ألوم نفسى.. وأصل.. وأجد أبى فى مكانه أمام الدار يتطلع للبئر.. ينبهه وقع خطواتى لعودتى فتملأ الابتسامة وجهه الطيب.. يمسح الحصير بكفه مزيلا عنه التراب لأجلس بجواره.. يضمنى بساعده فأكتشف أن دارنا وصمت أبى وبابنا المشقوق أحلى ألف مرة مما لدى نرجس!"

تنصت "زهرة" لذكريات "شكور".. وسرعان ما تملأ حدقتيها الدموع.. هى أيضا لها نفس الذكريات لكن لسانها لا يسعفها بالحكى.. قلبها المشتعل انفعالا على الدوام مترع بالذكرى والألم والمرارة التى لم تحسن يوما البوح بها.. تلوذ بالصمت.. تطبق جوانحها على عذاباتها وتصمت.. حتى يفيض

كيل الاحتمال فتثور.. ويقول الجميع: "زهرة نكدية"! وتبقى وحدها "شكور" تحتمل ثوراتها.. وتفسح لها مكانا بجوارها.. وتكف الأخريات عنها.. وتقول:

= لو رأيتم قلبها ما غضبتم منها!

يتطبب "رفاعى" بالذكريات.. وحين تهدأ آلام الغربة التى تنهشه يعود ليغترب من جديد.. وتثور أمه وهى تودعه.. وتؤنبه على تخليه عنها.. وتتخوف من عدم عودته.. فتستأنف "شكور" مداواة الجراح:

= حين كنت أعود من عند نرجس.. كان أبى ينظر إلى عينى مبتسما ويقول: لابد وأن يعود الإنسان إلى داره!

أمام النول جلست "شكور" تدفع الخيوط بالفرشاة لتتقارب وتتلاصق.. وهى تدندن:

"ياقمرنا ياوش الخير

اضوِ ولالى فى قلب البير"

صغيرة كانت تغنى مع أطفال "صافورة" للبئر والقمر.. وكان الراحل فتى حلواً كالقمر.. يبتسم لها وهو يدير البكرة رافعا الدلو الملئ بالماء المبارك.. كانت طفلة.. لكنها كانت "تستحى" من ابتسامته.. فينخفض صوتها المغنى.. وتهدأ

خطواتها.. وينسدل جفناها على عينيها السوداوين.. بينما تجذبها كفوف صويحباتها للجرى.. فتجرى.. وفى قلبها.. فى قلب قلبها يختبئ السر.. إنها تحب نظرات الفتى المضئ كالقمر!

ظل الصغار يغنون حول البئر.. ثم توالت الأقمار العجاف.. وتوالى الرحيل وعم الأسى.. ترى كم بقى فى جعبة السماء من الأقمار العجاف التى تطلقها كل شهر فى ليل "صافورة".. فلا تجلب زوارا ولا تملأ جيوبا؟!

نهضت "شكور" عن النول.. وقفت بعتبة دارها تتأمل الهمَّ الجاثم على "صافورة".. خطت للخارج خطوة.. عاودتها ذكرى ابتسامة الفتى الحلو كالقمر.. استندت بظهرها للحائط وهبطت جالسة بينما كانت دموع متلألئة تتجمع فى عينيها..

الفصل الثالث

المشهد الأول

ضُحَى يوم دافئ.. تطل شمسه المترفقة على بئر "صاقورة".. عمالٌ يحملون الجواريف والطوب ومواد البناء.. وهو جالس يتأملهم.. على وجهه علامات الضيق والتبرم.. ينكش الرمال بمسطرة طويلة.. ثم يعود ليتأملهم مرة أخرى

"كأنهم نفس العمال الذين حفروا هذه البئر القديمة منذ عشرات المئات من السنين!"

يتململ فى جلسته على الحجر الكبير الرابض فى ساحة البئر..

"لا ينشغلون إلا بأجور عجاف قد تبقيهم شبعانين بضعة أيام؟"

ترتفع أيدٍ وتهوى بكل قوتها على أطلال قديمة تتشرب حبات عرق الهادمين كما تشربت من قبل عرق بناتها.. وأيدٍ أخرى تبنى سورا شاذا طويلا متعرجا..

"هل خطر ببالهم أن يفكروا فى أصل هذه الأطلال؟ فى تاريخ البشر؟ فى سبب بناء هذا السور؟ أم أن الكون فى عيونهم مجرد شظايا.. لا علاقة لإحداها بالأخرى؟"

الأحجار تفتتت تحت طرقات معاولهم.. تتناثر..

"حياتهم كهذا الفتات المتناثر! فتات لا سبيل إلى تجميعه.. ولا نية لتجميعه أصلا!"

الأفكار تراوده وهو يتطلع إلى أيدى البنائين السريعة ويطالبهم بالمزيد من السرعة..

"لابد من إتمام بناء السور اليوم لأفرغ من هذه المهمة البغيضة"

ـ اسمع يا "على".. ستكون مشكلة إذا لم يكتمل السور اليوم.. تصرف!

التفت "علىّ" نحو زميله بحدة.. أوشك على الكلام لكنه أحجم وأدار وجهه..

ـ ليس هذا وقت خصام! دعك من غضب الأطفال! اليوم لابد وأن تنتهى من السور!

ابتسم "على" بغيظ.. العمال يعملون.. عشرات العمال يعملون.. والسور يبتعد.. ويبتعد.. ويأخذ كل يوم مزيدا من الأرض فى داخله.. فى البداية وعلى الورق.. كان مجرد دائرة حول البئر لا يزيد قطرها عن خمسين مترا.. دائرة ليس لها دورٌ إلا منع الناس عن البئر "الفاسدة".. وظلت الدائرة تتسع.. وتتسع.. وتنهب المزيد من الأرض فى داخلها.. ثم لم تعد دائرة! انبعجت من جانب وتحدبت من جانب وظهرت لها أذرع وزوايا.. والعمال يلهثون وراء هذا التتمدد الملعون.. يحددونه بسور لا تبدو له نهاية.. كلما بنوا جزءا منه يطول جزء أكبر.. والدائرة الشيطانية لاتكف عن الاتساع حتى تماست فى بعض أجزائها مع بيوت "صافورة"!

= سيذكر التاريخ يا "برهان" أننى من بناة سور "صافورة" غير العظيم!

حين نطق "على".. انقشعت الكآبة عن وجه "برهان".. فمنذ أن وقَّعَ بالموافقة وهو لايحدثه.. هذه هى المرة الأولى.. أسابيع كاملة يعملان معا دون أن يوجه له كلمة.. غضب عليه.. خاصمه كما يتخاصم الأطفال.. بنفس الرعونة والوضوح.. لايرد تحيته ولا يحضر مجلسا هو فيه.. لم

ينقصهما إلا أن يلوى أحدهما خنصره على خنصر الآخر ليعلنا إبرام القطيعة!

ـ اعذرنى يا "على"

= أسابيع وأنا أحاول.. ولم أستطع!

ـ الأوراق كانت سليمة.. وكلها كانت تؤكد أن البئر ملوثة!

= وكنت تعلم أنها ليست كذلك!

ـ ماذا كان بيدى؟

= ترفض التوقيع

ـ غيرى كان سيوقع

= فليفعلها غيرك وتصون أنت شرفك!

ـ كلامك جارح يا "على"

= أنت من جرح نفسه!

ـ افهمنى يا "على".. أهل "صافورة" كانوا سيتشردون سواء بتوقيعى أو بتوقيع غيرى.. التغير الوحيد الذى كان سيحدث إذا لم أوقع هو اضطهادى فى عملى.. وخسارتى لم تكن لتُرْبحَ أهل "صافورة" أى ربح..

= هى حجة المفرط الخالدة: إذا لم أفرط أنا سيفرط غيرى! نتجاهل أن طبائع الناس تختلف.. وأن هناك من يفر

وهناك أيضا من يَتْبُت.. نُعَمِّمُ الأحكام وكأننا قد اطلعنا على مكنونات الصدور..

ــ قليل من يستطيع الرفض!

= وكثير من يرتزق بالتفريط يا "برهان"!

ــ ماذا تعنى؟

= أعنى مكافأة الموافقة على الردم ومكافأة إعادة الحفر!

ــ أخذت كما أخذ كل العاملين بالمشروع.. وأنت منهم.. لم تكن رشوة!

= لكنك كنت تعلم ــ من البداية ــ أن البئر صالحة.. وتعلم الآن أن البئر الأثرية التى "ستكتشفونها" هى نفسها بئر "صافورة" القديمة التى ردمتموها!

ــ وأنت أيضا كنت تعلم! لا تتظاهر الآن بالبطولة.. لقد اكتفيت كالعادة بالاستنكار الكلامى.. وأنت تعلم تماما أنه تصرف عقيم! لست وحدك الذى صُدِمَ فى صديقه.. أنا أيضا صدمتُ فيك.. كنت أظن أن حقيقتك مثل كلامك.. وأنك ستجرؤ على المواجهة والتصدى.. انتظرتُ أن أستمد من شجاعتك قدرة على الرفض.. لكنك كالعادة كنت شيطانا أخرس!

= توقيعك أجهض كل نية للتصدى

ــ ماذا تريد الآن يا "على"؟

= أبحث عن بقايا صديق كان!

ـــ ما أروع تعبيراتك!

قالها "برهان" متهكما ثم التفت للبنائين.. تأملهم لحظات قبل أن يغادر المكان وهو يتابع من ركن عينيه "عليًا" الذى أخذ ينقش الرمال بمسطرة بينما وجهه يتفجر كمدا..

"لا توقع يا برهان.. فكر فى البسطاء الذين سيتشردون.. أنت قادر على منع الكارثة.. حاول على الأقل ألا تسهل لهم هذا العمل.. أنت المسئول ورأيك له ثقله"

لكن "برهان" وقَّع.. ثم وقَّع.. ثم وقَّع! وكلما زادت توقيعاته كلما ازداد تمدد السور أكثر وأكثر.. وكلما دخلت فى جوفه مساحات جديدة من أرض "صافورة".. فخزان المياه الجوفية تحت الأرض ممتدّ.. والسور يجب أن يحدد أبعاده بدقة.. لايجب أن تُترك للناس فى الخارج فرصة لحفر بئر جديدة.. تمدد السور حتى لاصق بيوت "صافورة".. وصار يغازلها ليبلعها فى جوفه.. وصار من اليسير على أهلها أن يـــمرقوا خلاله إذا ما خطوا خطوات قليلة أمام بيوتهم!

وهاهى "شكور" قد تمكنت أن تمرق خلاله بعد أن تراخى الحصار حول البئر يوما بعد يوم.. تلفتت حولها

مستطلعةً متحيرةً مستنكرةً المكان.. تنبهت لوجود "على" فاطمأنت نظراتها القلقة.. اقتربت منه..

= يا ألف أهلا وسهلا

أجفل "على" وهَبَّ واقفا

ـــ من؟

= "شكور" يا أستاذ..

ـــ "شكور" من؟ من أين أتيتِ؟

= من منزلى.. هنا.. وراء السور!

رفَّتْ ابتسامة غريبة على فمه

ـــ أتعيشين هنا؟

= هذه بلدى.. وهذا بيتى وراء السور..

ـــ نحن هنا منذ أسبوع ولم نرَ أحدا.. قيل لنا أن البلدة مهجورة.. خالية..

= مهجورة: نعم.. لكن خالية: لا!

ـــ إذن لم ترحلوا جيعا؟

= كثيرون رحلوا.. وكثيرون أيضا لم يرحلـوا! هـل تريدون شايا؟

ـــ سنسقيك نحن الشاى

= كنت أريد أن أعد لكم الشاى!

ـــ إذن نحن فى انتظار شايك!

توارت "شكور" خارجة وقد خفَّتْ خطواتها كعادتها حين تهتدى لعمل تؤديه.. وعاود "على" الجلوس وما زالت الابتسامة الغريبة تعلو شفتيه..

وعاد "برهان".. رمق السور الذى مازال بعيدا عن الاكتمال

ـــ سنبدأ فى حفر البئر يا "على" حتى ولو لم يكتمل السور.. لن نستطيع التأخر أكثر من ذلك!

= لماذا تحبذ إتمام السور قبل البدء فى الحفر؟

رمقه "برهان" بعتاب:

ـــ هل أنت مُصرٌ على أن نتصادم؟

= لا لا.. أريد أن أعرف حقا!

تأمله "برهان" بارتياب قبل أن يجيبه على مضض:

ـــ ألا تعلم أننا سوف نغير معالم المنطقة.. وسنعيد حفر نفس البئر التى سبق ردمها؟

= إذن لابد من انتظار إتمام السور!

ـــ لمَ؟

دخلت "شكور" تحمل الشاى وقد اصطحبت معها "زهرة" التى تعثرت فى حجر.. أشار "على" نحوهما وهمس في أذن برهان بشماتة:

- هذا هو الجواب!

المشهد الثانى

فى ضوء القمر.. وعلى حصير مفروش أمـــام بيــت "شكور" يجلس الضابط "محيى" والمهندس "على".. يســـندان ظهريهما إلى السور الذى اكتمل وأحكم حصــــاره لـــلأرض المحيطة ببئر "صافورة".. والذى ترتفع من حافتــه أعمــدة حديدية عملاقة.. تسكب كشافاتُها العالية ضوءا وقحا علـــى الساحة المحيطة بالبئر.. فتبدو كأنها حفرة من حفـــر جهـــنم المتلظية سكنت ظلام "صافورة" الوادع..

يسندان ظهريهما للسور الشائه.. ويمدان سوقهم فتكاد أقدامهم تمس جدران بيت "شكور" المفتوح بابه.. والذى تفوح منه رائحة طعام.. بينما القمر يطل فى وجوم على البئر التى أعيد حفرها.. ينظر إلى وجهه فى مائها فيزداد وجوما حين لايجد ابتسامته.. يتذكر حين كان يغتسل فى هذا الماء فيقطر من السماء صفاء!

تخرج "شكور" حاملة صينية متسعة.. ينشط الجالسان لاستقبال الطعام.. يمد "على" يديه ويتناول الصـــينية بينمـــا

يدخل "محيى" الدار ويعود حاملا قلة يلمع سطحها المبتل..
يجلسون حول الطعام..

= هذا السور حجب الهواء.. فى الماضى كان الفضاء ممتدا ولم يكن هناك ما يحجز نسيم الليل..

ـــ ربما يهدمون السور يوما

= وتصبح بيوتنا ضمن المشروع يا باشمهندس؟

ـــ ربما!

= حتى بيوتنا ستصبح ضمن مشروعهم؟

لَسَعَ الأسى الناضح من كلمات "شكور" قلبيهما.. تبادلا نظرات مرتبكة..

ـــ ألا تريدين أن يزول هذا الحاجز بينك وبين البئر؟

= أريد.. لكننى لا أريد أن يلتهم السور بيتى!

لحظات صمت تمر وهى تثبت نظراتها على السور..
وشىء فى القلب ينتفض.. ومرارة القهر تملأ كل خلاياها..
ماذا كان بيدها؟ هى.. "شكور".. المسالمة الوديعة.. ماذا كان بيدها؟

سلبوها حياتها! ولم تعترض!

ظنت أنها أضعف من أن تعترض!

وحين بدأ أبناء "صافورة" فى الرحيل عنها.. رفضت أن ترحل معهم! وبقيت مع غيرها من المستضعفين الذين لم يأتمنوا على أنفسهم أرضا غير هذه الأرض.. خافوا من مواجهة المجهول خارجها.. بقيت.. لا لتواجه الجرافات والخوذات والنجوم اللامعة فوق الأكتاف.. وإنما لأنها ظنت نفسها أضعف من أن تغير مسار حياتها.. ظلت بجوار مواطن الذكريات الحبيبة.. وقبلت العيش بجوار الوافدين الجدد وقالت: ستستوعبنى الحياة! وحتى حين بدأ السور يتسع ويلتهم الفضاء أمامها لم تفكر فى أن تترجمَ حزنها إلى أى شئ آخر غير الحزن! ومثلها كان كل الذين بقوا فى "صافورة".. حزنوا.. ولم يقدروا على شىء سوى أنْ يحزنوا!

لكن "صافورة" ضاقت عليها!

انغلق فضاؤها المترامى ولم يعد مباح لعينيها ولا لقدميها إلا الأزقة الضيقة والحارات المسدودة.. فغر المشروع فاه وابتلع أرض الحب والصحبة..

ينتفض القلب الآن؟

يفور بداخلها الشوق للبئر؟

تتوق لشربة ماء مباركة؟

تشعر برغبة فى تحطيم السور والارتماء فى البراح المكسو بضوء القمر؟

ألم تشهد وهى صامتة ضياع كل هذا؟

لماذا تتولد — الآن — بداخلها القوة والجرأة والرغبة فى الرفض؟

= دارى لن تدخل ضمن مشروعهم يا باشمهندس!

— لا تخافى يا "ست شكور" ما هى إلا دردشة كلام!

= ولا حتى دردشة كلام!

فى يوم فات.. ضمن ما فات من أيام.. طرق باب هذه الدار نفسها فتى مضىء كالقمر.. قال له أبوها:

= بنتى لن تتركنى.. إن شئت زواجها ستقيم أنت هنا!

وحايل الفتى أهله.. واغتاظت أمه.. وكررت كلماتها اللاذعة:

— جرجرتك البنت وراءها!

وكانت كلماتها — التى تهدف لتجريحه واستثارة عناده — تقع فى نفسه موقعا جميلا!

"نعم جرجرتنى! وما أحلى ما أنا فيه!"

كانت "شكور" صبية تغنى مع الصبايا للقمر والبئر.. وكان الفتى نضرا ضحوكا.. جاء بصحبة مريض يستشفى.. أحبها فأحب من أجل عينيها "صافورة" وبئرها وقمرها وأهلها.. وصار يعود كل شهر فى ليالى القمر.. وأفسح له أهل "صافورة" مكانا فى القلب.. ينام فى دُورِهِم كواحد من أبنائهم.. يطعم من طعامهم.. يساعدهم فى الضيافة..

ينتظر الليالى القمرية ليجرى إليها.. وهى تروغ منه.. تستعذب وتستنكر دقات قلبها وتورد خديها حين تراه.. تندهش لإحجامها عن الطعام فى ليالى القمر.. يتكشـف إحساسها بأنوثتها.. تشعر بنفسها فتاة أخرى.. نظراته تحيى فيها ما لم تكن تعلم أنه فيها.. لم يخف منه أهل "صافورة" على ابنتهم.. باركوه حتى استكانت بين ذراعيه فى هذه الدار.. تعلمت منه كيف تحبه.. وكانت تلميذة نابهة..

قبل رحيله قالت:

= أخاف عليك منهم!

فترقرقت الدموع فى عينيه كعادته حين يفيض به العشق.. أوصته على نفسه وظلت تتابعه حتى حجبته المسافة عن ناظريها!

ظل يروح ويجئ.. اعتادت سفره وعودته.. لكنها أبدا لم تستطع ترويض نفسها على اعتياد تعرضه للخطر.. سألته عنهم.. عن أولئك الذين يترصدونه يريدون الفتك به.. فحكى لها عن عيونهم الماكرة.. عن بشرتهم الباردة.. قال:

= ستعرفينهم إذا رأيتيهم.. سيخبرك قلبك!

وسألت نفسها: كيف أراهم وهم هناك.. بعيدون كل البعد عنى.. وأنا هنا فى بلدى؟

ظل الفتى المضئ يروح ويجئ.. يروح ويجئ.. إلى أن راح......

"لابد وأن يعود المرء إلى داره يا شكور"

ـــ سيفتحون المنتجع بعد أسابيع..

= لم أصدق نفسى حين رأيته اليوم.. فقد مضت شهور منذ أن زرت "الست شكور" بعد ردم البئر.. ولم يكن هناك حتى هذا السور.. متى استطاعوا أن يتموا كل هذه الإنشاءات فى المنتجع؟

تململت "شكور" فى مكانها وأشرقت شفتيها بابتسامتها المتسللة للقلوب ..

= ما هذا "المنتجع" الذى تتحدثان عنه؟

ـــ المشروع.. هذا المشروع وراء السور يسمى: منتجع

= وماذا يفعل الناس بالمنتجع؟

ـــ يستريحون ويتريضون ويهدؤون أعصابهم.. ويدفعون نقودا!

"يحولون بيننا وبين بحرنا.. ويتوه الأهل في شقوق الدنيا.. ويأتي الناس من كل بلاد الله ليستريحوا؟ يُتعبون أنفسهم بالسفر والترحال ليستريحوا؟ أين كانوا يستريحون من قبل؟ ولماذا لا يبقون في بيوتهم ويستريحون فيها؟"

= ألا يأتون للاستشفاء والعلاج؟

ـــ بلى.. يأتون.. هذا هو الأساس.. لكن إلى جانب العلاج توجد سينما وملاعب وملاهى ومتاجر ومسرح وفندق!

تاهت "شكور" في معاني الكلمات الغريبة التي سمعتها.. لكنها انتعشت لوقع الكلمة الأخيرة:

= فندق؟ أيوجد فندق؟

تدخل "محيى":

ـــ يوجد فندق.. لكن "فردقك" هذا أحسن منه مائة مرة!

"يأتون بجيوبهم المنتفخة ليتداووا ببئر الفقراء؟ كيف تمنحهم البئر بركتها؟ كيف يسكب القمرعليهم قدسيته ونوره الطاهر بعد أن سلبوا الفقراء دواءهم وبئرهم؟ لكن أين البئر؟ أين بئرنا؟ أسنَتْ مياهها لما أحست بمجيئهم.. فردموها.. وحفروا لأنفسهم بئرا كأى بئر أخرى.. لم يباركها مرور نبى ولم يرعها عارف بالله"

= أنا لا أحب ما وراء السور يابنى!!

ـــ ألا تحبين بئركم المباركة؟

= لم تعد بئرنا.. أصبحت بئر الآخرين الذين يسافرون ويرتحلون لكى يرتاحوا.. لم تعد بئر الذين انقطع عيشهم وتفرقوا فى البلاد يبحثون لأنفسهم عن ملاذ ولقمة عيش.. اصبحت بئر الذين جاءوا لنخرج نحن

ـــ بل بئركم!

= بئرنا ردموها..

"بئس التوقيع توقيعك يا برهان!"

ـــ البئر هى هى يا ست "شكور"! أعادوا حفرها بعد أن ردموها!

= لا يابنى.. لقد حفروا بئرا جديدة

ـــ كما أقول لك.. البئر هى نفس البئر!

"هى نفس البئر؟ لماذا إذن كان ما كان؟ لماذا تشرد أهل "صافورة" ومضوا تلطمهم الدنيا فى كل أرض ينزلون بها؟ لماذا أُغْلِقَ أمامهم باب الرزق واستُكْثِر عليهم خيرهم؟ وهل كان هؤلاء الذين يسافرون ويرتحلون ليرتاحوا.. فى حاجة إلى بئر الفقراء؟"

نهضت "شكور" فى هدوء.. دلفت داخل بيتها.. همس "محيى" "لعلى":

= ما هذا الذى قلته؟ ماذا ستجنى من تعذيبها هكذا؟

ـــ يجب ألا يُوَقِّعَ أحد بعد الآن!

= أى توقيع؟ "شكور" لا تعرف الكتابة والقراءة!

ـــ كلنا نوقع يا "محيى"! بالقلم نوقع.. بالخوف نوقع.. بالشفقة نوقع.. بالطمع بالجبن.. وحتى بالصمت نوقع!

المشهد الثالث

الليلة ظلماء..

والسماء السوداء تغمز بعيونها النجمية الساخرة.. والقمر المحاق يتوارى فى جوف الكون.. وفى سكون وجمود تجلس أشباحٌ ثلاثة.. تتبادل النظراتِ العمياءَ فى ليلة معتمة.. فلا ترى إلا سواد الليل وعتمة الملامح.. وتـُـفـْشِى القلوب السر المخبوء:

إنهم جميعا يدركون الفخ الذى وقعوا فيه.. يلعقون العلقم الجارى فى العروق.. يفهمون ويعانون.. ويذوبون عذابا وندما.. يفرون بنظراتهم خشية أن ترى ما لا تحب أن تراه فى وجوه الأهل! لكن قلوبهم ــ رغم الليالى السوداء المظلمة ــ ترصد الآلام المحفورة على الوجوه!

"شكور" و"زهرة" وولدها البكر: "رفاعى" الذى تلقته "شكور" وليدا على يديها.. وحملته ودارت تضمه فى حضنها وتقول للنسوة الحاضرات:

= انظرن! هو أول فرحتى!

الثلاثة جالسون على الحصير صامتون.. ينتظرون أن ينكسر قيد الحرج الذى ألجم ألسنتهم.. ينتفض "رفاعى":

= لا أستطيع أن أتخيل ما قلته يا خالة "شكور"

أمسكت "شكور" بمعصمه لتجلسه ثانية.. ورمقت السور بعينين رافضتين

"ما فائدة الانتفاض والغضب ونحن هنا وهم هناك وهذا السور قائم بيننا وبينهم؟"

لكنه انتزع معصمه.. خطا حتى لاصق السور.. ركن جبهته عليه ودق بقبضته المضمومة طوبه الصلد.. ظل يروح ويجئ كسبع حبيس..

" كيف تواطأ كل هؤلاء لخداعنا ؟"

= ناديه يا "زهرة"!

لكن "زهرة" أيضا لا تستجيب لـ "شكور".. كيف تستجيب وقد غادرها وعيها هاربا إلى أيام فاتت وانقضت.. أيام كان "رفاعى" يتولى حراسة البئر.. وكانت هى تزهو على الناس بمكانة ولدها.. وتشمخ بأنفها على رواد "صافورة".. وتنتظر من الجميع أن يُكــبِّرَها ويوقرها.. فهى أم "رفاعى" الذى يسهر الليل بجوار بئر "صافورة" حين يتوارى القمر محاقا فى جوف الكون.. يهش عنها هوام الليل

وشياطين الظلام السابحة فى العتمة.. يغطى فوهتها بخيمته إذا ثارت الرياح ويبقى هو فى العراء يستقبل لفحات الرمال العاصفة بظهره.. وفى النهار يروح ويجيء طائفا حولها متفقدا أمرها.. طاردا العيال العفاريت إذا لاحت فى وجوههم نبضات الشقاوة و"العفرتة"! يفحص سورها.. يغسل دلاءها.. يصون بَكَرَتَـــهَا.. يأتى بفسيلة صغيرة ويزرعها بجوارها.. وتسأله أمه ساخطة:

= ماذا ستفعل تلك النبتة يا فالح؟

ــ ستكبر.. وحين تكبر ستحمى البئر وتظللها..

= حين تكبر؟ وهل سيتركها العيال المعجونون بماء الشياطين حتى تكبر؟

ــ سأحرسها يا أمى

= اهجر بيتك إذن وأقم بجوارها.. اسكن هناك ليل نهار.. ليس وراءنا إلا شجيرتك!

ويرعى "رفاعى" شجيرته.. ويعلم العيال العفاريت حبها.. يحافظون عليها.. يحرصون ــ إذا اقتربوا من البئر ــ ألا تطأ أقدامهم الصغيرة حوضها.. ينتزعون الحشائش والأعشاب التى تتقصد غذاءها وقوتها.. يتسابقون لنيل رضا العم "رفاعى" ليسمح لهم بريها بماء البئر وبإصلاح حوضها

وتقويم عودها.. وتنمو الشجيرة.. ويسميها **الناس**: "شجرة رفاعى"! وتظل "زهرة" الساخطةُ.. ساخطةً **منها! ويناكدها** زوجها:

= غاضبة أنت لأن الناس تحب "**شجرة رفاعى**" أكثر مما تحب "أم رفاعى"!

فيتملكها الحنق.. وتثور.. وتُطَيِّـرُ **إساءاتها للجميع** وللشجرة! وتقسم أن تقتلعها.. وأبدا لا تقتلعها.. **لأنها**:

"شجرة رفاعى"!

"علام كانت الثورة والغضب؟ وفيم كان الحزن؟ وما هذا الذى يعتصر قلبى الآن إذا كان ذلك الذى كنت أشعر به بالأمس هو الحزن؟ ليتك يا أيام تعودين.. وأسهر معك يارفاعى عند البئر.. أحرسها وأسقى شجيرتك.. وأرتوى بصحبة الأحباب والخلان.. وأشعر فى داخلى بالقوة والقدرة.. وأقتات الإحساس بالعزوة والمنعة.. الأهل حولى والبئر تحت يدى.. وولدى حارسها.. لكنك ضعت يا بئر صافورة وضاع معك ناسك!"

= هل تظنين يا "شكور" أن "شجرة رفاعى" مازالت قائمة بجوار البئر؟

"ماذا يمنعهم من اقتلاعها وقد اقتلعونا نحن؟ ماذا يمنعهم من اقتلاعها وهم لم يسقوها يوما ولم يسندوها بحجر ولم يستمتعوا بظلها ولم تُسَمَّ باسم حبيب من أحبائهم؟ ماذا يمنعهم من فعل أى شئ مادامو لم يحبوا أى شئ؟"

تنهض "شكور".. تتجه نحو "رفاعى" الذى جلس مستندا للسور واضعا رأسه بين كفيه.. تضع يدها على كتفه.. يرفع نحوها عينين جامدتين.. يطالعها بوجه متجهم عبوس لم تره من قبل.. يهمس بصوت مختنق:

= كنت حارسها يا خالة "شكور"!

ـــ مثل أبى.. أحببتَ البئر مثله.. ورعيتَها.. و.....

= لم أرعها.. خطفوها من بين يدى لأننى كنت حارسا خائبا! خدعونى كما تخدع دابة!

ـــ اسم الله عليك يا حبيبى.. العيب ليس فيك.. جميعنا صدقناهم وخُدِعْنَا.. كنا أبسط من أن نحتاط!

= لكننى كنت حارسها!

ـــ ونحن كنا ناسها وأصحابها.. وكانت هى عزوتنا والروح التى تتردد فى نفوسنا.. عشنا حولها لا ندرى ما يدور بعيدا عنها.. لا نتصور ما يعتمل فى نفوس الآخرين

تجاهها.. اكتفينا بها ولم نظمع فيما لدى الآخرين.. ظننا الجميع مثلنا ولم نتخيل صدق نبوءات حراس البئر السابقين..

= كانوا يخافون عليها من لعب الأطفال وهبات الريح.. يخافون عليها حتى من أنفسهم.. لم تثنهم عن حراستها سخرية الجميع.. أما أنا فما أسهل ما خدعت! وما أسرع ما صدقت ادعاءاتهم!

ـــ لا تظلم نفسك يا ولدى.. لقد حاولت منع الجرافة من ردمها فأخذوك أنت وغيرك إلى أن تم كل شئ

= ولما عدنا ووجدناها قد ردمت.. انفضضنا من حولها وجرينا نبحث عن الرزق بعيدا عنها كالبلهاء!

ـــ لكنك تعود لتتسقط أخبارها كل حين.. لأنك ما زلت تشعر أنك حارسها..

= حارس عاجز.. مسدودة الطرق فى وجهه!

طبطبت "شكور" على صدره

"تحت وطأة الرمال محبوسة أنفاسك يا بئر صافورة..تئنين..تختنقين..تستغيثين ونحن عنك منصرفون! نلهث وراء الرزق.. ورزقنا أمام أعيننا مسلوب! أتراك يابئرنا مازلت تنتظرين عودة أحبابك؟"

عادت "شكور" تطبطب على كتفه.. أخذته من ذراعه فخضع كطفل مذنب.. أجلسته على الحصير أمامها.. القمر المحاق يتابعهم مستترا بالليل والغيوم..

= كان أبى رحمه الله لا يأمن أحدا على البئر.. حتى نحن كان يخاف منا! وكان ينقل خيمته للأمام كل حين إذا حجبت البئرَ دارٌ جديدة.. لتبقى ـ دوما ـ تحتَ عينيه.. ظل يحرسها فى العراء حتى بعد أن شاخ وضعف.. يرقبها ويغلبه النعاس فينتفض مذعورا مبسملا.. يستعيذ بالله ولا يقصص رؤياه على أحد.. يمضى نحو البئر.. يـُمَدِّدُ جسده بجوارها ويروح فى غفوات قصار..

ـ كان حارسا يقظا..

= ومثله أنت يا "رفاعى".. طالما قلت لأمك أنك تذكرنى بأبى.. كنت أناكدها وأقول لها: ولدى يشبه أبى ولايشبه أبيكِ!

ـ ليس من صان كمن ضيع..

= صان أبى البئر طيلة عمره.. صانها من شر فى رحم الغيب استشعرت روحُه سعيَه نحو البئر.. لكن الشر تلكأ فى الانقضاض.. وقبل موته أوصى عليها زوجى.. وتلكأ الشر.. وراح زوجى دون أن يواجهه.. ولما نسينا هذا

المتربص فى رخم الغيب انقض علينا فنكث غزلنا وبعثرنا.... لكننى كنت دوما أقول عنك لأمك: ولدى يشبه أبى!

ويتمتم "رفاعى": الجد صان والعم صان.. وليس من صان كمن ضيع!

"نعم.. ليس من صان كمن ضيع.. وقد كان "الفتى حلوا كالقمر.. أحبه أبى حين صَدَّقَ حبه للبئر.. ائتمنه عليها وسمح لنفسه بالنوم فى الدار مادام الفتى الوضئ ساهرا يحرسها.. ولما كانوا يسألونه: كيف تأمن هذا الفتى الغر عليها؟ كان يجيبهم: لو رأيتم قلبه ما سألتم! وكنت أعرف قلبه.. أراه وأسمعه وأحتضنه فى صدرى ويحس دفئه قلبى.. فهمت لم ميزه أبى لكننى لم أفهم مم كان يحذره هامسا!"

= أبوك هج يارفاعى!

اندهش "رفاعى".. تبادل النظرات المتسائلة مع "شكور".. ما الذى ذكر أمه بهروب أبيه وهى أصلا لم تعترف بهروبه؟ لماذا ينبش الناس قلوبهم باحثين عن اللوعة

والألم؟ يستعذبون مصائبهم ويجترونها حارقين أنفسهم.. يتجرعون القهر كئوسا إذا سقاهم الدهر كأسا..

= لم يهرب يا "زهرة" بل خرج مثل الجميع يجرى خلف رزقه!

ـ حين ردموا البئر فرد ريشه وطار.. جرؤ على تركى لما رآنى مقهورة لا حول لى ولا قوة.. تحجج بقطع رزقه هنا فخرج يبحث عنه حيث لا أدرى..

= الكل خرج

ـ تزوج هناك! وقال فى داهية "زهرة"!

= ما الداعى لهذا الحديث الآن يا امه؟

ـ حين ضاع البئر لم يُبْقِ أحد على شئ.. فلم يعد هناك ما يستحق الرعاية! تعلم الناس كيف يتخلون ويهربون.. فرَّ من يريد الفرار وبقى من يحب البقاء.. الردم كان الحجة التى تحجج بها كل الهاربين..

= لا تظلمى الناس يا "زهرة".. هل يفر أحد من أرضه وأكل عيشه؟

ـ كان قد ملَّ ما لديه.. كل ما لديه.. حتى (...)! طمع فيما هناك.. تطلع لدنيا جديدة ولرزق أوسع.. وقال أجرب حظى!

= ضياع البئر بعثرهم يا امه..

ـــ هل تظنهم يعودون إذا عادت يا "رفاعى"؟

"يعودون؟ ربما! لكن.. حتى إذا عادوا جميعا.. هل سيعود (هو)؟ قال لى: قليل من لا يعود من الحرب يا شكور! ولم يعد.. أتراه يعود إذا عادت البئر؟ ولم لا؟ البئر مباركة.. منها شرب الوليد المقدس وبمائها اغتسل.. ودعت أمه الطاهرة أن يبارك الله ماءها ويحفظها ويجعلها عونا للضعفاء.. وظلت البئر تمنح خيرها وبركتها لكل المحتاجين.. وستحل بركتها على منقذيها.. وسيعود كل الغائبين.. ويعود الفتى حلوا كالقمر.. لم تحنه السنون ولم يطفئ وضاءته الاغتراب"

أجفلت "شكور" على صوت "رفاعى" الحاسم القوى:

ـــ اسمعى يا امه: من الغد ـــ إن شاء الله ـــ سأذهب!

انتفضت "زهرة".. فيم جاء الولد وفيم سيذهب؟ هرب أبوه وقالت: ربنا يعوضنى فى أولادى.. ومنذ أيام عاد الولد قائلا: لا تحملى هما.. سأبقى معك ولن أسافر.. رب هنا رب هناك.. وسندبر حياتنا! وهاهو يهرب أيضا.. ابن أبيه.. والعرق دساس.. صرخت:

ـــ مع السلامة! الحق بأبيك! لن أتسول الحنان منكم!

قامت تتعثر فى جلبابها.. تجذبه من تحت قدمها بعصبية.. ينخلع نعلها ويطير بعيدا.. تبرطم ساخطة.. تتخبط فى مشيتها الخرقاء.. وتلعن ناسا وأياما وحظا أسود!

— لا تزعل يا "رفاعى".. أمك طيبة..

= أعرف أنها طيبة.. ولو لحقت بها الآن لوجدتها فى الدار تبكى لأنها أغضبتنى!

— الْحَقْ بها إذن وطيب خاطرها

= خالة "شكور".. أثناء غيابى ستهتمين بها.. أليس كذلك؟ لا أحد سيحتملها غيرك!

— أىُّ غياب؟

= غيبة لن تطول.. لكنها لازمة! ادعى لى ياخالة!

– داعية لك يا ولدى.. وأمك فى" ننِ" عينى!

ربتت على صدره.. مسحت وجهه بنظراتها الرؤوم..

— لا تغب يابن الغالية.. ياأول فرحتى..

"لما غاب الفتى.. وانقفل بابُ الدارِ علىّ.. لم تغب عنى صورته ملقىً فى رمال الأرض البعيدة.. نازفة دماؤه.. يلتقط قلبى نداءه الأخير.. محتاج هو إلى.. محتاج لمس كفى على جبينه.. محتاج أن يقفل عينيه على رؤياى.. محتاجة أن أحتويه فى صدرى وأغسل جسده بدموعى وأعود به ليظل

بقربى.. هنا.. فى صافورة! النافذة.. الحصير.. أكواب الشاى.. الفراش.. ملابسه فى الصندوق.. أشياؤه كلها لن تقابله ثانية! أظلمت الدار وعشش الحزن فيها.. وانقضت الأيام وأنا مكومة.. لا أطيق أن أسمع صوتا.. لا أطيق أن أرى أحدا.. إلى أن أيقظنى البشير من غفوتى.. فَجَرَيْتُ إلى دار الحبيبة.. تلقيتك وليدا على يدى.. تنزَّلْــتَ أول ما تنزلت على قلبى.. قطعة من حشاش الروح.."

= خالة "شكور".. اعتنى بالدور.. ولا تدعى الخراب يعشش فى أى بيت من بيوت "صافورة"!

ــ ليلة مولدك جاءتنى الرؤيا.. زارنى الغالى فى المنام وقال لى: سأرسل لك "رفاعى" ليحمل همك.. جريت إلى أمك فتلقيتك على كفىّ .. قلت لها هو: "رفاعى"! رفضت وزمجرت وثارت ثم أسمتك: "رفاعى"! وبعد سنوات حين قَبَضْتَ بكفك على رأس الثعبان الكامن بشق جدار بيتى.. قلت: قد صدقت رؤياى وتحققت البشارة.. فالحبيب لم يكذبنى أبدا!

وانصرف "رفاعى"!

وبقيت "شكور" تتأمل ضوء النجمات العابثات الذى ما زال يضطرم ويخبو ساخراً.. وتفكر فى فتى كان يبقى معها إذا ذهب الجميع.. يحنو عليها إذا قست الدنيا.. يحدثها حين تخرس الألسن.. ويطمئنها إذا انفطر القلب فزعا..

"لكنه راح.. ضيعوه.. قلتُ له من أول يوم: أخاف أن يضيعوك! سألتُه أن يصفهم لى.. فرفض.. لم يعرفنى طريقهم.. لم يذكر لى أسماءهم.. قال ستعرفينهم حين ترينهم! ولم أعرفهم فى كل الوجوه التى رأيتها.. عشرات ومئات تزدحم بهم ساحة البئر كل شهر.. أبحث فيهم ولا يهدينى قلبى إليهم.. شهور وشهور وسنوات طوال.. أبحث فى وجوه كل الوافدين ولا أجد ثأرك لديهم! أين هم يا حبة القلب؟ أما كان عليك أن تخبرنى؟ ألم تكن تعرف أننى سأتعذب بحثا عنهم؟ كنت تعرف كل ما يسوؤنى قبل أن يمسنى.. تبعده.. تطارده.. تحمينى بذراعيك وحبك وحياتك.. فلِمَ تركتنى لعذاب الحيرة هكذا؟"

الفصل الثالث

المشهد الأول

تحت واحدة من الأشجار الغريبة.. التى جئ بها كبيرة نامية.. لتغرس فى أرض لم تحتضن يوما بذرتها النابتة.. ولم ترضعها حليب أمومتها.. تحت واحدة من الأشجار الشاذة النافرة الحمقاء التى احتلت ساحة بئر " صافورة " وأخذت تطل على المكان بتحفز وتوعد.. جلس " علىّ " و" برهان ".. كل يلتمس فى الآخر صديقا كان.. كلّ يحاول إحياء ذكريات مرت وعبرت بوابة الماضى وماعاد سبيل لإخراجها !

" على " يدرك أن " برهان " يريد مفاتحته فى أمر هام.. فهاهو يتصنع المرح.. وينقر المنضدة بأطراف أصابعه.. ويخبط الأرض بمقدمة حذائه.. ويهز رأسه

متظاهرا بالاهتمام بما يقوله رفيقه.. هذه جميعها أعراض لحالة يعرفها " على " جيدا..

يوم وقَّع " برهان " عقد بيع شقته التى كانا يقيمان فيها معا.. والتى عرض عليه " على " أن يشتريها منه.. جاءه يضحك ويتصنع المرح وينقر بأصابعه المائدة ويدق الأرض بمقدمة حذائه ويهز رأسه متجاوبا !

ـ لقد بعتُ الشقة !

ـ بعتها ؟! لـِمَ يا "برهان" ؟ ألم أعرض عليك شراءها ؟

ـ السعر كان مغرٍ جدا !

ـ لكننا اتفقنا وكان من واجبك أن تعرض الأمر علىّ.. كنت سأشترى منك..

ـ لا.. لا.. لم يكن فى مقدورك.. أنا أعلم.. اعذرنى يا " على " !

وحمل "علىّ" أشياءه.. ملابسه وسريره.. وكتبه وكتبه.. وصورة الزعيم التى كانت (آنذاك) معلقة فى حجرته! عشر سنوات وهو يقيم فى شقة "برهان".. يدفع له إيجارها كل شهر بدون أن يعقدا للإيجار عقدا. سنوات الجامعة الخمس.. وفترة التجنيد.. وأربع سنوات من العمل

فى شركة المقاولات.. عشر سنوات نسج الود والامتزاج خيوطهما بينه وبين كل ما حوله.. هذا الشباك المطل على المنور: اعتاد سماع الأصوات التى تصله من خلاله والتى صارت حميمة بتعاقب الأيام.. اعتاد روائح الطبخ التى تهب عليه منه.. أطفال الجيران الذين شبُّوا وشبابهم الذين صاروا كهولا.. يتبرد القلب بمقابلتهم على السلم طالعين نازلين.. يشعر أنه بين ناسه.. وهذه الجدران برائحتها الجيرية الرطبة قد أدمنها.. وأصوات رواد المقهى الواقع أسفل العمارة ألفها.. هى هى كل يوم.. عرف أسماءهم.. كل يوم وهو خارج لا يكف عن إلقاء التحيات.. ألف الناس وألفوه.. اعتاد انبعاجات الشارع وحفره.. لكنه اضطر للرحيل.. فقد باع " برهان" المأوى والعشرة ! حمل أشياءه وذهب.. وتجرع الاغتراب فى مسكنه الجديد.. وتراكمت معاناته حتى بدأ يألف رائحة شقته الجديدة وينسج خيوط التواد بينه وبين عالمه الجديد..

ما أكثر المرات التى دق فيها "برهان" الموائد بأصابعه وخبط الأرض بمقدمة حذائه!

شقشقات طيور الحديقة.. المتقافزة على الأشجار النافرة التى طوقت بئر "صافورة".. والتى غُرِسَتْ وأينعت

وأزهرت فى أسابيع قليلة عن عمد وترصد.. تصنع موسيقى توائم المشهد وتمهد لما سوف يتطور من الأحداث.. شقشقاتها ليست أبدا كشقشقة العصافير الأخرى الغبراء الأصيلة المتقافزة على الشجرة صاحبة الأرض.. التى نبتت ونمت وأورقت وأينعت دون استعجال.. "شجرة رفاعى" التى رضعت من رحيق أرضها الأم وأطعمت طيورها الغبراء عشقها فأحبتها الطيور ولم ترض عنها بديلا.. وصارت تشدو لها بشقشقات الحب العذبة.. وتمرح فوق أغصانها وتتوارى عن الأعين باغبرار لونها! ربما كان لون الطيور التى سكنت الأشجار الجديدة أزهى وريشها ألمع.. لكن شقشقاتها جوفاء.. خالية من العذوبة.. تماما كصوت "برهان" الذى صار أجوف رغم غلظته.. رغم لهجته المسرحية.. ورغم تهدجه الذى كان يفتعله إلى أن أصبح عادة لازمته.. تلون صوته وتلوى وتأثر زُوراً حتى فقد صدقه..

"كم كان صوتك حميما يابرهان"

عادت طرقات الأصابع القلقة تُوَقِّـعُ لشقشقات الطيور الجوفاء.. والنخلات الباسقات المهندسات تبدو وكأنها صورٌ لنخلات حقيقية.. والنجيل المنتظم الممتد على الأرض التى اصْطـنُـعَ لها وهاد وهضاب.. يشى انتظامه بأنه جزء من

"ديكور" مصطنع لمشهد تمثيلى! كل هذا تمثيل.. هذه البنايات.. والأشجار.. والملاعب.. والأحواض.. تمثيل فى تمثيل.. والجميع ممثلون.. وحين ينتهى العرض سيُرفع كل هذا !

ـــ هذا السور يا "على".....

" لماذا لا تُكمِلَ يا برهان ؟ مم تخاف ؟ "

ـــ لقد قررنا تعديل السور المتعرج يا "على".. سيسير فى خط منحن منتظم !

= كيف يسير فى خط منحن منتظم؟ وبيوت الناس الواقعة خلفه ؟

ـــ سنشتريها منهم!

= لِمَ تتحدث بضمير المتكلم يا "برهان"؟

ـــ سيشترونها يا "على".. سنشتريها.. ماذا تعنى "الضمائر"؟! المهم أن القرار اتخذ بضم تلك البيوت.. سيتم حفر بئر ثانية فيها.. المنطقة تسبح على بحيرة من الماء العذب!

= احفروها هناك.. فى الجهة الخالية.. توسعوا بعيدا عن بيوتهم!

ـ فى الجهات الأخرى لا توجد مشكلة فى التوسع.. المشكلة هنا.. فى هذه الجهة.. نريد أن نطمئن على مصالحنا فيها.. فسكان "صافورة" حين يُفْـتَـتَـحُ المنتجـع وينجـح ويجـذب الأثريـاء.. سيعودون كالجراد ليتطفلوا ويتسولوا ويحتالوا ليكون لهم نصيب فى الخير.. ولا أحد يدرى إلى أين سيذهب بهم الطمع بعد أن تصبح لبيوتهم قيمة! قد يكيدون لنا.. أقصد لأصحاب المنتجع.. وقد يبيعونها للمنافسين الذين سيحومون بعد أن تصبح المنطقة منطقة جذب!

ـ هل تتكلم جادا ؟

ـ بالطبع! ألا تدرك أن.....

ـ تخافون على المكان الذى لم تعيشوا فيه ولم تحبوه ولم تألفوه ولم تكن لكم فيه ذكرى وتتجاهلون ـ بدءا وانتهاءً ـ كل ذلك عند أهل "صافورة"؟

ـ نحن على استعداد لتعويضهم ليشتروا منازل فى أى بلدة أخرى.. منازل حديثة.. واسعة..

ـ ستعوضون الجميع؟ أم ستعوضون من بقى منهم فقط ؟

ـ سيكون هناك تفاهم على هذا كله !

= إذن لاتنسوا يا "برهان" أن تعوضوهم أيضا عن ذكرياتهم ليشتروا ذكريات جديدة وعن شملهم الذى بعثرتموه وعن اطمئنانهم المروَّع ليستطيعوا شراء بدائل لهذا كله !

ـ "على"! لقد رحلوا بالفعل.. ولم يبق منهم إلا قليل سندفع لهم ويرحلون.. والبلاد كثيرة.. إذا تفرقوا فيها لن يضج منهم أحد.. بالعكس هناك كثيرٌ من أمثالك الذين قد يشفقون عليهم ويرحبون بهم!

"تفرّ منهم فى كل بلدة.. والبلاد كثيرة.. وحياة ستطحن الوافدين الغرباء بخشونتها وقسوتها.. ينشغلون فى إيجاد مكان لهم بين أيامها.. فى العثور على مأوى فى زحامها.. ومعاناة قد تصهر كل أمل لهم فى العودة.. ويمر الوقت ويفعل الزمن فعله.. وتخبو الذكريات.. وينطفئ الحنين.. و......"

= ماذا تريد منى يا "برهان"؟

ـ أنت تعرفهم يا "على" و...

= آه.. نعم.. تريدنى ملعقة تطعمك حقهم! فأقنعهم أن يقبضوا ويتوكلوا على الله ويرحلوا!

ـ بك أو بدونك سيرحلون.. لكنى أريدك أن تتفاوض أنت معهم لتطمئن عليهم وعلى مناسبة مبالغ التعويضات

التى ستدفع لهم والتى ستقدرها بنفسك.. هم يثقون بك وأنت تحبهم.. وتَذَكَّرْ دائما أن رحيلهم سيتم بك أو بدونك!

"وتنجرف قدمى.. وأسقُطُ مثلك يابرهان.. وأعيش أدارى قذارتى.. وأغالط.. وأدعى أننى ما فَرَّطْتُ.. وأن لكل عصر طريقته.. ويجرنى التفريط للكذب.. والكذب للخيانة.. والخيانة للرضوخ.... بك أو بدونك سيتم الأمر! كم مرة تقيأت استسلامك هذا يا برهان؟"

ـ ماذا قلت يا على؟

= قلت سأسافر غدا!

ـ تسافر غدا.. إلى أين؟

"ماأكثر البيوت المهجورة.. الصامتة.. وماأسهل خنق الصامتين!!"

التفت "على" حين سمع الصوت.. ثم صاح للواقف على باب السور:

= أدخلها

أطلت "شكور" مذهولة.. خطت بتردد.. تخشى أن تفسد الخضرة المبسوطة على الأرض.. توقفت ثم انحنت لتلمس بأناملها النجيل المنتظم.. تحاول أن تصدقه.. فى

المكان شئ كاذب.. شاذ.. تتأمل النخيل والشجر.. تنصت لأصوات العصافير .. تبتسم محتارة حين يصافحها "علىّ" .. تشير لما حولها ولا تنطق.. تقع عيناها على "شجرة رفاعى".. يندهش " علىّ " لبقاء الشجرة.. كيف فاتهم اقتلاعها؟

= شجرتكم يا خالة "شكور"

ـــ نعم يا ولدى..

تتلألأ الابتسامة الحميمة على وجهها الوضاح.. فقد تعرفت على المكان.. رغم الثوب الشائه الذى ألبسوه له!

ـــ جئت لأطمئن عليك.. عدة أيام مرت ولم أرك..

= كنت سأمر عليكِ غدا قبل سفرى

ـــ ستسافر؟

= نعم.. سفر قصير

ـــ "رفاعى" أيضا قال ذلك.. وأنت يا ولدى ألن....

"ستعرفينهم حين ترينهم "

"نعم.. كنت دائما تشعر بى قبل أن أشعر أنا بنفسى.. كنت تعرف أننى سأعرفهم! "

تتبع "على" اتجاه النظرات المتقدة لـــ "شكور" التى انقطع حديثها فجأة.. فوجدها مصوبة نحو بعض الجالسين

تحت واحدة من **الشجرات المتضخمة الغبية.. انقطع** صوتها.. انسحبت الدماء من وجنتيها المتوردتين.. ارتعشت شفتاها.. وتزاحمت الدموع فى عينيها وهى تتمتم بكلمات عن: غائب.. وبشارة.. وفتى كالقمر راح ولم يعد.....

الفصل الرابع

المشهد الأخير

في منزل "شكور" الحجرى.. وعلى نفس الفراش الذى كان المرضى يرقدون عليه.. وتحت النافذة التى يطل القمـــر منها.. رقدت "شكور"! عيناها الذابلتان تنظران إلى "زهرة".. تلتمسان منها عونا.. ترجوان مساعدة.. لكن "زهرة" تبكـــى عاجزةً عن قراءة ما فيهما.. تنفرط دموعهـــا فتبلـــل وجـــه الراقدة..

"إلا أنت يا " شكور".. من لى بعدك؟ من لرفاعى؟ من يرش الصبر على القهر الذى نتجرعه كل يوم وكل ساعة؟ "

دموع " زهرة " توقظ بعضا من وعـــى "شـــكور".. فترفع يدها الواهنة وتمسح وجنتها.. تلـــتقط "زهـــرة" اليـــد الحبيبة.. تلثمها.. تلصق وجهها بوجه "شكور":

ــ كلمينى يا اختى.. فضفضى..

الهلال المتعرج يشق السماء السوداء على استحياء.. تستجديه العينان الواهنتان ماضيا كان.. فتتكـاثف طبقـات الأسى حجبا للملامح الودودة.. وعلى السرير تقبع حبيباتهـا الصغيرات.. يرقبن ضعفها.. تمتلئ عيونهن عطفا.. يتطلعن نحو الكبار حولهن:

"ألا تستطيعون شـيئا؟ كيـف تكونـون كبـارا ولا تستطيعون؟"

فى جوف الليل.. تندفع "نرجس" الواصلة تـوا إلـى "صافورة".. تمرق من باب الحجرة المفتوح.. تلقـى سـبتها وتنطلق نحو حبيبتها الراقدة:

ـ مالك يا اختى؟

تستبشر "زهرة" لمجيئها.. تنبت على وجهها ابتسـامة نادرة.. تربت على ظهرها وهى منكفئة تحتضـن "شـكور" وتبكى..

ـ ستحل البركة بمجيئك يا "نرجس"..

تلتفت نحوها.. تتعانقان فى نشـيج مريـر.. وعينـا "شكور" الذابلتان ترسلان نظرات الود.. الطفلات الصغيرات نهضن.. وقفن على السرير منفعلات.. تـألق الأمـل فـى عيونهن الجميلة.. منذ أرسلت الخالة "زهرة" فى طلب الخالة

"نرجس" وهُنَّ يظنن أن الشفاء سيحل بقدومها.. كن يُقَسِّمْن أنفسهن فرقا لرصد العائدين.. يرحن ويجئن في الطريق.. يرقبن كل قادم.. تكثر استنتاجاتهن قبل أن تتضح الملامح..

= هي..

ـ لا.. الخالة "نرجس" أطول!

= أقول لكِ هي!

ـ هذا ليس ثوبها!

= اشترت ثوبا جديدا!

ـ ليست هي..

= بل هي..

قدومها هو "البركة" التي ينتظرن حلولها..

هكذا قيل.. لكنهن اندهشن لدموع الخالتين:"نرجس" و"زهرة"! أفزعهن العجز وقلة الحيلة اللذان رصداهما على ملامحهما..

"لِمَ إذن كنا ننتظر الخالة نرجس؟"

= بالأمس زارها طبيب آخر.. كل الذين فزعوا إلـــى "صابفورة" حين علموا بمرضها يــأتون معهــم بالأطبــاء.. جيرانها وربائبها والضابط "محيى" والمهندس "على"..

علب الدواء مرصوصة فى صينية ألمونيــوم قديمــة على المخدة بجوارها.. أقزام عاجزة تختبئ خلــف أغلفتهــا الورقية الملونة.. لا تمنح بركة ولا تقدر على شفاء..

= ألم يظهر أى تحسن ؟

ــ بل تزداد ضعفا.. لم تعد تقدر حتى على الجلــوس بمفردها.. " شكور " التى كانت تملأ الدنيا نشاطا لم تعد.....

الدموع تخنق الكلمات.. القلوب منقبضـــة.. واليــأس بحر غريق سقطوا فيه حتى قاعه.. الأصداغ على الأكــف.. والجذوع تميل يمنا ويسارا..

متجمعون حولها تجمعهم حول مُحْـتَـضَر!

= منذ زارت المهندس "على" وراء السور وهى على هذه الحال..

"نرجس" القابعة عند رأس "شكور" تتطلــع للآخــرين بعينين محتقنتين لا تكفان عن البكاء.. تلتقط بكل جوارحهــا كل ما يقال.. تحاول أن تجد سببا لانهيار "شكور"

"آه لو كنت معك! ملعونة الدنيا! تركتــك ولــم أدرك قسوة هذا عليك.. انشغلت عنك بالعيال والغربة ومسايســة الحياة البغيضة"

- ظلت حتى الصباح تهذى.. وتذكر زوجها وأباها.. وتقول: رأيتهم.. عرفتهم! تفتح عينيها على وسعهما وترفض النوم.. وتحكى لكل من يطل فى وجهها عن البشـــارة التـــى صدقت!

أمام الدار يجلس الجميع واجمين.. لا يبرحون أماكنهم إلا لتناول ما "يقوتهم".. ثم يلسعهم القلق فيهرولون عائـــدين لمرابضهم أمام دار "شكور" التى حرق مرضها قلوبهم.. مـــا خطر ببالهم أن تمرض.. ظنوها أكبر من هذا.. لم يحســبُوا يوما كمّ الألم المخبوء فى قلبها.. فهى "شكور".. الملاذ فـــى الأحزان والصمود فى الملمات.. يجـــرى إليهـــا الجميـــع.. يفرغون همومهم.. يتزودون بالصبر والقوة.. لم يخطر ببالهم يوما أنها قد تمرض.. قد تسقط.. قـــد تحتـــاجهم.. لســـبب بديهى! أنها هى:

"شكور" !

الصغار مأخوذون بما يحدث.. ورغم حزنهم على الخالة "شكور" إلا أن مرضها أرضى شيئا فى نفوسهم! فقد انبعثت الحياة فى "صافورة" من جديد.. وصارت ملهاتهم المفضلة أن يرقبوا الطريق.. ثم يطيرون إلى الرابضين أمام الدار يبشرونهم بأسماء العائدين الجدد.. يرقبون بوجوههم المتوردة وجباههم اللامعة فرحة اللقاءات وحرقة الأسى على الخالة "شكور".. يسيرون خلف العائدين حتى دورهم.. يسمعون صوت فتح الأبواب التى طال انغلاقها.. يبتهجون للنور المتراقص الذى صار ينسكب من نوافذ البيوت فيفرش الحارات بمستطيلات وضاءة.. يروحون ويجيئون فى الليل دون خوف.. فالأبواب المغلقة التى كانوا يخافون ما وراءها قد فُتحتْ وانبعثت منها نفحات الود!

الحزن يهزم "نرجس" دوما.. وكلما ألحت فى كبح دموعها كلما جاءت انفجاراتها الباكية أعنف.. كيف تركَتْ "شكور"؟ وكيف مرت الشهور دون أن تزورها؟

ـ من ستبيت عند من الليلة ؟

= تعالى أنت يا نرجس.. فقلبى لا يطاوعنى على ترك أبى ثلاث ليال متتالية..

ـ وهل يبيت أبوكِ فى داركم؟ إنه يبيت بجوار البئر حتى لا يأتى لص ويحملها على كتفه ويهرب!

= لكنه يحسب أوقات غيابى عن الدار ويأسى لها ولا يصرح

تنهال الدموع غزيرة.. تلصق "نرجس" وجهها بوجه "شكور" و"تنهنه" فى حنان.. يأخذونها بعيدا فتعود سريعا.. وفى قلبها مغروز خنجر الإحساس بالذنب..

"لو كنت معكِ لفهمتُ ما جرى"!

عينا "شكور" الذابلتان معلقتان بسماء "صافورة".. ترنوان إلى هلالها الذى يكتنز يوما بعد يوم.. ما زالت تحب قمر "صافورة" رغم عجزه! تدفع نسمات الليل مصراع النافذة فيتوارى الهلال خلفها.. يتكرس الأسى والعجز فى قلبها.. تمتد يد "نرجس" بدون اتفاق لتفتحه.. هى أيضا تحب ليل "صافورة" وقمرها الطفل الذى ينمو فى حضن السماء يوما بعد يوم.. ما عادت عينا "شكور" تتطلعان لشئ إلا للسماء.. ترقبان قمرها الذى ينزل ضوؤه على روحها بلسما فتهدأ.. وتلين أطرافها المتصلبة.. وينبسط وجهها المروَّع.. وتنساب إليها الذكريات رائعة حلوة..

فتنام.. لكن سرعان ما يشيخ الليل.. ويقتحم النهارُ أعطافه اللينات.. ويطعن "شكور" بذكرى النهار الأخير..

"بينى وبينهم أمتار ولا تطالهم يدى.. ويظل ثأرك نارا تتقد فى قلبى.. يستظلون ويتريضون.. يتبردون بماء البئر.. أزاحوك وزحفوا إليه.. مدوا فيه أيديهم الدنسة.. ثم ضحكوا ملء أشداقهم! وأنا هنا.. بينى وبينهم أمتار.. وثأرك نار فى صدرى......"

وتنتفض "شكور".. يحتقن وجهها الشاحب.. تشير بيدها المتصلبة جهة البئر.. يتعثر لسانها العاجز فى حروف ثقيلة لا تتزحزح.. يسعفونها بقرص.. تطيح به.. تطيح بكوب الماء.. تزم شفتيها.. تنطرح مهدودة منهارة..

الكل يعرف دواءها! والكل يدعى الجهل! ضرب العجز حصاره علىالألسنة بعدما حاصر الأيدى!

المممر الفاصل بين دار "شكور" والسور امتلأ بالعائدين الذين فاض زحامهم فملأ باقى حوارى "صافورة" وشقوقها.. عادت عروق البلدة تنبض بالحياة.. انقشعت وطأة الموات وانتعشت نسمات الأرض الثكلى بعودة بنيها وأحباء بنيها..

الضابط "محيى" يلازم باب الدار..

"أتكون أسطورتهم حقيقة؟ أزمنة طويلة صَدَقَتْ فيها الأسطورة.. لماذا سلمت أنا بكذبها؟ لماذا صدقت من لم يعيشوا هنا وكذبت أصحاب المكان؟ قلبى يحدثنى أنه لا شفاء لشكور إلا بها.. لكن....."

ـ لن أسامح نفسى إذا.....

ينتبه "محيى" لتمتمات "على"

= وما ذنبك أنت؟

ـ الذنب كله ذنبى.. لست إلا شيطانا أخرس!

فرق الرصد جاءت تجرى لتبشر بالقادم الجديد:

= عم رفاعى.. عم رفاعى

اقتحم "رفاعى" الزحام حول دار "شكور".. الطريق ينفسح أمامه.. تماما مثلما كان ينفسح حين يستدعيه أهل "صافورة" لإخراج ثعبان كامن بين أحجار بيوتهم.. نفس هذا التصميم كان يلوح من عينيه.. نفس هذا الثبات فى الخطو.. نفس المهابة والشجاعة.. وبعد أن يحبس الثعبان فى جرابه.. يعود كما كان: "رفاعى".. الوادع.. الهادئ.. لين العريكة.. ويسأله أصحابه عما ينتابه حين يذهب لإخراج الثعابين فيجيبهم:

"ضعف الإنسان يستثير قوتهم.. ومـــاهم بأقويـــاء.. هاجموهم بقوة لتروا كيف يتراجعون بجبن!"

يشق "رفاعى" الزحام.. يدخل الدار.. يمرق إلى غرفة "شكور".. يركع بجوار فراشها.. يضع كفه فـوق جبينهـــا.. يطل فى عينيها.. يندفع الذين مرقوا وراءه وملأوا الحجـــرة ليحكوا له ما حدث.. يتطلع بنفـــور للـــدواء المرصــــوص.. يحتوى يدها بين كفيه.. يبتسم لها.. تبتسم.. يهمس فى أذنها.. تتسع ابتسامتها.. ينهض.. يهم بالخروج.. يسأله الزحام مـــن حوله:

= أذاهب أنت إلى هناك؟

تتأمله "شكور" فإذا هو فتى حلو كالقمر!

يخرج.. فيخرج الجميع وراءه!

تمت

مارس ٢٠٠٢

صدر للمؤلفة :

• استيقظ	" قصص "	أخبار اليوم ١٩٩٧
• تعظيم سلام	" قصص "	أخبار اليوم ٢٠٠٠
• شرشبيل	" رواية "	أخبار اليوم ٢٠٠١
• لأنـك لم تعرفـى زمن افتقادك	" قصص "	مركز الحضارة العربية (ط ١) ٢٠٠٣ ايزيس للإبداع والثقافة (ط٢) ٢٠٠٦
• البئر	" رواية "	مركز الحضارة العربية (ط١) ٢٠٠٣ ايزيس للإبداع والثقافة (ط٢) ٢٠٠٦
• الغزو عشقا	" رواية "	٢٠٠٥